JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ
العدد الثامن والعشرون
(٨٧) (١١٦)

أحلام اليقظة عند المتنبي والشريف الرضي وأبي العلاء المعري (تحليل وموازنة)

م.د وسام محمد عبود الربيعي
جامعة واسط/ كلية التربية للعلوم الإنسانية
waboud@uowasit.edu.iq

المستخلص:

تناول هذا البحث وجها آخر للأحلام نرسم فيه عالمنا وتطلعاتنا وآمالنا كما نشاء، وقد تبين أنَّ لأحلام اليقظة دوافع كثيرة لا طاقة لهذه الخلاصة بذكرها، كما أعرب البحث عن المنزلة السامقة للخيال الخصب وكشف عن دلالات أحلام اليقظة، ثم فصل القول في تحليل قصائد شعرائنا الثلاثة التي تصب في واد واحد ابتداءً بالأقدم، وقد اختُتِمَ البحث بإجراء موازنات موضوعية بين شعرائنا الثلاثة أظهرت لنا مكامن جمال أخَّاذ وبينت مواطن إبداع فريد، وأشارت إلى الفاضل والمفضول بعد النظر بعين النقد الموضوعي والعدل والإنصاف.

الكلمات المفتاحية: الحُلم, أحلام اليقظة, المتنبي, الشريف الرضي, أبو العلاء المعري, الموازنة, الأدب العباسي.

Daydreams in Al-Mutanabbi, Al-Sharif Al-Radi, and Abu Al-Ala Al Ma'arri (Analysis and Comparison

Dr. Wisam Muhammad Abboud Al-RubaieeABSTRACT
Wasit University/ College of Education for Humanities
waboud@uowasit.edu.iq

Abstract:

This research dealt with another aspect of dreams, in which we draw our world, aspirations and hopes as we wish. It became clear that daydreams have many motives that this summary cannot mention in detail. The research also revealed the lofty status of fertile imagination and explained to the reader the terminological meanings of daydreams. Then it detailed the analysis of the poems of our three poets that talk about the subject of daydreams, starting with the oldest and then the oldest. The research concluded by making fair and just comparisons between our three poets,

JOBS مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

which showed us the sources of captivating beauty and demonstrated the unique places of creativity in their poems, and pointed out the virtuous and the inferior after looking with an eye of objective criticism, justice and fairness.

Keywords: dream, daydreams, Al-Mutanabbi, Al-Sharif Al-Radi, Abu Al-Ala Al-Ma'arri, comparison, Abbasid literature.

المقدمة:

ليس من شكٍ في أنَّ الشاعر العظيم يمتلك خيالًا عظيمًا يطأ به أرضَ الفن الرفيع ويأخذ بضَبعه إلى سماء الإبداع؛ فيسير به في دروبٍ شتّى يختار منها الأكثر تنفيسا عما تمور به نفسه أو بوحًا بما يتطلع إليه ويتمنى القيام به، وقد يحمل الخيال الإبداعي في جعبته رسائل مُستترة تقلق خصوم الشاعر أيَّما قلق؛ فتقض مضاجعهم في الوقت الذي لا يقتدرون فيه على الإشارة إليه بأصابع الاتهام أو الإلقاء باللوم عليه؛ لأن الخيال أفق مفتوح لا توصد أبوابه ولا تطوله يد أرباب السلطان إنْ لم يُسيء إليها بشكل مباشر أو ظاهر _إلى حد ما_ تدركه بصيرة أُولي الحصافة والكياسة من وعاظهم وحاشيتهم، فالشاعر المُفلق يضربهم بسياط الكلمات وهم عاجزونَ عن مجابهته، فهو والحال هذه ملك أرض الخيال وهم ملوك أرض الواقع.

ولا مِراءَ في أنَّ الخيال "صور تُضاف إلى الواقع لكي تُغنيه أو لكي تُغيّره، الخيال واقعٌ آخر"(باشلار، ٢٠٠٧، ٨)، يعصمنا من السقوط في بئر التفكير السلبي ويقينا من الغرق في نهر القنوط والابتئاس، فـ "الخيال إذن جوهر الأدب، وهو ليس زينة كزينة الحُلى والرياش" (ضيف، ١٩٦٢، ١٧٣)، وقد يقترب الخيال من الواقع أحيانًا وقد يبتعد أحيانًا أخرى إلى الحد الذي يجعله أقرب إلى الأحلام منه إلى الواقع، وهذه الأحلام يتخذها الشاعر سجلًا يدون به مغانمه وملاحمه سواء أمتمناة كانت أم مُخطط لها من قِبل الشاعر الذي يتحين الفرص المؤاتية للشروع في تنفيذها، و"يعتقد فرويد أنَّ الإنسان يستطيع أنْ يُشبع رغباته المكبوتة أثناء اليقظة أحيانًا؛ وذلك عن طريق ما يُسمى بأحلام اليقظة، فقد يشتد ضغط الرغبة على أحد الناس بحيث لا يستطيع الصبر عليها، إنه يريد أنْ يُشبعها حالًا، ولعله لا يُحب أن ينتظر وقت النوم، أو هو لا يعتمد على أحلام النوم اعتمادًا كبيرًا؛ فيلجأ إلى أحلام اليقظة لينفس بها عن همومه الكامنة"(الوردي، ١٩٩٤، ٧٨_٧٩)، وفي الوقت نفسه يجعل الناس يألفون سماع مخططاته وما يرنو إليه من أحلامٍ يرغب في قضاء وطره منها، وهذا الاعتياد قد يجلب له بعضَ الأنصار ويصرف عنه لفيف من المناوئين بعد أن تُصبحَ هذه التطلعات المتأتية من أحلام اليقظة صفة ملازمة له، ولا جَرَمَ أنَّ القيادة والشجاعة جناحان يشد

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

بعضُهما عَضُدَ الآخر؛ ونتيجة لذلك يتحَتَّم على الشاعر القائد _أو المتطلع إلى القيادة والسيادة_ أنْ ينماز بجرأة القول وشجاعة البوح بمكنون صدره، مما يُشعره بشيء من الانتصار النفسي؛ إذ إنّ " الانعطاف نحو الداخل بخيالات تقتحم عقولنا فتُدخِلُها في مغامرات شتى، ستخفف عنا الملل الذي نشعر به، وعبء الحياة اليومية وإرهاقاتها، وتُرمم أحاسيسنا وتُشعرنا بقيمتنا الذاتية، وربما تنتقم لنا من متسلط أو ظالم، وتحقق لنا رغبة دفينة لا نستطيع تحقيقها في الواقع ... إنَّ أحلام اليقظة تلعب دورًا في تحقيق التوازن النفسي، وفيها تكمن طاقة كبيرة على حل بعض المشكلات ومواجهة بعض متطلبات الحياة، خصوصًا إذا ما ارتبطت بالواقع"(رضوان، ٢٠١٨، ١)، على النحو الذي ارتبطت فيه أحلامُ المتنبي ومن تقيّله بالواقع _المأمول_ ولا نُغالي إذا قلنا: إنَّ المتنبي كان حامل لواء الإباء والشمم ومُلهم الرضي والمعري الَّذَينِ رضعا لبان ديوانه وتزودا منه زاد الرغبة في القيادة والنظر إلى النفس نظرة الفارس البطل الكمي الذي يشق الصفوف بسيفه ويبدد الألوف برماحه وأتباعه، إلى نفسه، وهذا الأمر حدا بنا إلى العمل على الموازنة بين الشعراء الثلاثة في هذا الغرض الذي اتفقوا فيه، من حيث المعنى تارة ومن حيث الوزن والقافية تارة أخرى، تبعًا لما تُسعفنا به دواوينهم من قصائد متشاكلة أو مقطوعات متساوقة أو نتف متشابهة إلى حد ما.

ومن المفيد التذكير بأنَّ "الأوضاع اللازمة لعقد هذه الموازنة كثيرة متنوعة؛ ولكنها جميعًا تعود إلى أصل واحد: هو أنَّ طرفَي الموازنة لابُدَّ أن يكون بينهما اتفاق من ناحية واختلاف من ناحية أخرى؛ فالأشياء المتفقة في كل شيء، على فرض وجودها، لا معنى للموازنة بينها؛ إذ هي شيء واحد مكرر الصورة، والأشياء المختلفة في كل شيء، على فرض وجودها، لا معنى للموازنة بينها كذلك؛ إذ لا مناسبة بينها تقرن بين أفرادِها"(الشايب، ١٩٩٤, ٢٨٩)، وقد عمدنا إلى إفراد كل شاعر عن الآخر، وتحليل أبياته التي تصب في بوتقة أحلام اليقظة على حدة؛ رغبة في تفصيل القول فيها وإيفاء الموضوع حقه، ومن ثَمَّ قمنا بالموازنة بين شعرائنا الثلاثة فيما يخص أحلام اليقظة لديهم.

أحلام اليقظة عند المتنبي

انتهج الشعراء منهاج المتنبي واقتفوا أثره ثم اتخذوه قدوة يحتذى بها قديما وحديثا، فراموا وَصلَ رفيع منزلته وسامق رتبته وقد كان المتنبي مبدعًا في حكمته ووصفه وصوره الشعرية وخياله الزاخر الذي لا يُضاهى؛ إذ حدا به إلى الارتقاء بأحلام يقظته جاعلًا إياها قريبة كل القرب من الواقع؛ وتبعًا لذلك يُخيل إلينا أنَّ روحَ المتنبي تقود عسكرًا من الأرواح الثائرة، أليس هو الذي وصفه الشريف

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

الرضي بقائد عسكر(يُنظر: البديعي، ١٨٩١، ٢٥٢/١)، اتبعه الرضي فكريًا، ودونك قول أبي الطيب: (من الكامل) (العكبري، ٢٠٠٨، ٢/ ١٦٢)

إِنْ لَمْ تُغِثني خَيلُهُ وَسِلاحُـهُ ... فَمَتى أَقودُ إِلى الأَعادي عَسْكَرَا

أغلب الظن أن المتنبي رأى في أحلام يقظته أنَّه يقود عسكرًا يرغم به أنوف أعدائه ويُشعره بالزهو والتِّيه، وظل يطارد أحلامه مثلما يطارد الأسد فريسةً لائذةً بالفرار، ولا أدل على ذلك من قوله: (من الوافر) (العكبري، ٢٠٠٨، ١/ ٣٥٨_ ٣٥٩)

أُحــادٌ أَم سُداسٌ في أُحادِ ... لُيَيلَتُنـا الـمَـنُـوطَـةُ بِالتَنادِ

....

أُفَكِّرُ فـي مُعـاقَرَةِ المَنايا ... وَقودِ الخَيلِ مُشرِفَةَ الهَوادي

زَعيمٌ لِلقَنا الخَطِّيِّ عَزمي ... بِسَفكِ دَمِ الحَواضِرِ وَالبَوادي

لا جَرَمَ أنَّ انشغال المتنبي فكريًا هو الذي أطال قصر ليلته على الرغم من تصغيره إياها؛ مما جعلها ليلة مؤرقة طويلة، ويبدو لنا أنَّ تفكيره استمر لست ساعات عادل مقدار كل ساعة منها يومًا كاملًا، وقد ذهب بعضهم إلى أنَّ هذه الليلة في طولها كأنَّها متصلة بيوم القيامة (يُنظر: المعري، ١٩٩٢، ١/ ٢٩٨)، وليس من شكٍ في أنَّ مَنْ يُحيي ليله سَهَرًا يساوره قلقٌ أو همٌّ يروم إخماد اضطرام نارهما؛ فيعيش آناءَ يقظته أحب الأحلام إلى قلبه فيقود الجيوش ويسوس الحروب ويسفك دم أعدائه، وقد بلغ انتشاء المتنبي بحلمه ذروته حينما حلم بسفك دم أهل الحضر وأهل البادية في الوقت نفسه؛ إذ لا يفعل هذا سوى الخميس العرمرم والجيش الجرَّار، وأنَّى له هذا وهو الذي يقول: (من الطويل) (العكبري، ٢٠٠٨، ٢/ ١٤٥_ ١٤٦).

أُطاعِنُ خَيلاً مِن فَوارِسِها الدَهرُ ... وَحيداً وَما قَولي كَذا وَمَعي الصَبرُ

وَأَشجَعُ مِنّي كُلَّ يَومٍ سَلامَتي .... وَما ثَبَتَت إِلّا وَفي نَفسِها أَمرُ

تَمَرَّستُ بِالآفاتِ حَتّى تَرَكتُها ... تَقولُ أَماتَ المَوتُ أَم ذُعِرَ الذُعرُ

وَأَقدَمتُ إِقدامَ الأَتِيِّ كَأَنَّ لي ... سِوى مُهجَتي أَو كانَ لي عِندَها وِترُ

...

وَلا تَحسَبَنَّ المَجدَ زِقّاً وَقَينَةً ... فَما المَجدُ إِلّا السَيفُ وَالفَتكَةُ البِكرُ

وَتَضريبُ أَعناقِ المُلوكِ وَهامِها ... لَكَ الهَبَواتُ السودُ وَالعَسكَرُ المَجرُ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

إنَّ المحارب الذي يمتلك جنديًا واحدا يدعى الصبر هو في حقيقة الأمر لا يملك أي جندي، وإنَّما يخوض معارك رسمتها فرشاة أحلام يقظته عن لوحة يعلل النفس برسمها، فهو ملك الخيال وقائد جيوشه ومحاربه الذي لم يمسك به كف الموت على الرغم من دنوه منه وإلقائه بنفسه في مهاوي الردى بفدائية واستماتة وإقدام يضارع استبسال مَنْ يرى الموت في الهَيْجا ألذّ مِنَ الشَّهْدِ، ولا تثريبَ على أبي الطيب في ذلك؛ إذ "إنَّ مَنْ لا يستطيع أنْ يصنع مقابل العالم الخارجي عالمًا داخليًا مِنَ الخيال، فلن يستطيع وضع بدائل سلوكية ممكنة وسيواجه مثيرات العالم الخارجي عاجزًا، أما مَنْ يحلم أحلامًا نهارية فلن يكون مأسورًا باللحظة الراهنة ويستطيع أنْ يقدّم بدائل فاعلة لمواجهة الواقع"(رضوان، ٢٠١٨، ٣)، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ مجد الخيال هو معادل موضوعي لمجد الواقع المُتَمنَّى وإنَّ المتنبي قد وجه خطابه إلى الآخر ونَفسه في وَقْتٍ مَعًا، فهو يرى أنَّ طريق السعادة يسلكه مَنْ يجعل أحلامه واقعًا ملموسا عندما يظفر بصحبة فرسان يشاطرونه المبادئ نفسها وتُشاكل أحلامهم أحلامَ شاعرنا الذي عَزّ عليه امتلاك جيش عظيم يمكنه من ضرب أعناق الملوك وذوي السلطان، فجعل نفسه ملكًا على مملكة الخيال الفني.

من الجدير بالذكر أنَّ المتنبي امتطى صهوة جواد خَيَاله وخاض معارك حامية الوطيس على أرض أحلام يقظته منذ صباه، أليس هو الذي يقول: (من البسيط) (العكبري، ٢٠٠٨، ٤/ ٤١_ ٤٤)

سَيَصحَبُ النَصلُ مِنّي مِثلَ مَضرِبِهِ ... وَيَنجَلي خَبَري عَن صِمَّةِ الصِمَمِ
لَقَد تَصَبَّرتُ حَتّى لاتَ مُصطَبَرٍ ... فَالآنَ أُقحِمُ حَتّى لاتَ مُقتَحَمِ
لَأَتــرُكَــنَّ وُجــوهَ الخَــيــلِ ساهِـمَـةً ... وَالحَربُ أَقوَمُ مِنْ ساقٍ عَلى قَدَمِ
وَالطَّـعــنُ يُحــرِقُها وَالزَّجــرُ يُقلِقُها ... حَتّى كَأَنَّ بِها ضَرباً مِنَ اللَّمَمِ
قَد كَلَّمَتها العَوالي فَهيَ كالِحَةٌ ... كَأَنَّما الصابُ مَعصوبٌ عَلى اللُجُمِ
بِكُلِّ مُنصَلِتٍ ما زالَ مُنتَظِري ... حَتّى أَذَلتُ لَهُ مِنْ دَولَةِ الخَدَمِ
شَيخٍ يَرى الصَّلَواتِ الخَمسَ نافِلَةً ... وَيَستَحِلُّ دَمَ الحُجّاجِ في الحَرَمِ
وَكُلَّما نُطِحَت تَحتَ العَجاجِ بِهِ ... أُسدُ الكَتائِبِ رامَتهُ وَلَمْ يَرِمِ
تُنسي البِلادَ بُروقَ الجَوِّ بارِقَتي ... وَتَكتَفي بِالدَّمِ الجاري عَنِ الدِّيَمِ

يَتَبَدَّى لنا من هذه الأبيات أنَّنَا في حضرة فتى كثير الأحلام يحدّثك عمّا فعله في أحلامه على النحو الذي يخبرك به قائد الجيوش وليث الحروب من حسن بلاء وقوة شكيمة وإحراز انتصارات صعبة المنال؛ فهو والحال هذه كَمَثَلِ رجل صفع صورة القمر المعكوسة على الماء، فظنَّ أنه نال

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

من البدر القاطِن في كبد السماء، فهو أشجع الشجعان الذي يتوعد أعداءه بحرب ضروس تُهلك الحَرثَ والنَّسْلَ.

وأغلب الظن أنّ عمل الشاعر على إعلاء شأن نفسه وإبراز رفيع إمكاناته ومؤهلاته وحميد سجاياه متأت من الرغبة في إقناع ثلة من الناس باتباعه أو الرغبة في كف أذى أعداءه ودرء شرهم، مثلما يقترب شخص من النار ليجعل ظله يبدو أكبر حجما، وأنتَ عندما تُنعم النظر في هذه الأبيات "قد يفتنك منها قدرة المتنبي الخارقة على إثارة انفعالك والتأثير فيك بما وُهِبَ من طاقة شعورية عالية استطاعت بحق أنْ توقفك أمام تجربة حية لإنسان ... بلغت عنده العاطفة من التركيز والعمق درجة جعلتك تشعر بما في ألفاظ الشاعر وصورِهِ من توقد وحرارة"(العشماوي، ١٩٧٩، ٨٠)، تنم عن صدق المتنبي النفسي والشعوري؛ فهو يستأنف حربا شعواء تصافح فيها السيوف الرماح قائدا فيها الخيل التي تستظل بجناح الموت وتلتحف بالقسطل مضطربة لما تشعر به منا ألم الكلوم وما تسمعه من زجر وصياح, يمتطيها فارس باسل ينتضي سيفه الملقب بالشيخ لقِدَمه وبياضه(يُنظر: المعري، ١٩٩٢، ١/ ١٣٩)، ليضرب به أعناقَ أسودِ الحرب وَكُمَاتِها.

وقد تجنى بعضهم على المتنبي حينما وصفه بالحمق عند شرحه البيت الأخير قائلًا في ذلك " يقول: إذا برقت سيوفي في حرب أعدائي، فإنَّ ضوءها يزيد على ضوء بروق السحاب، حتى تنسى الناس البروق ويكثر مع ذلك سيلان الدماء، حتى تستغني البلاد عن الأمطار بما صبه من الدماء، وهذا كلام مشبع بالحماقة، حتى لو قاله أحد بني بويه، أو بني أرتُق أو بني أيوب، لَنُسِبَ إلى ذلك، وهم ملوك الأرض وحملتها، وأرباب المغازي وولاتها"(العكبري، ٢٠٠٨، ٤/ ٤٤)، ولو أنعم الشارح النظر في هذه الأبيات وابتعد قليلًا عن التفسير والشرح المباشر لتبين له أنها أحلام رجل طموح رآها في يقظته فنسجها بأسلوب فني فريد ألبسها ثوب الخلود وها نحن نراها وإياه بعد أكثر من ألف سنة ونشاطره الإحساس والانفعال.

لعل من البديهي أن نقول: إنّ تعزيز تقدير الإنسان لذاته ليس حمقًا البتة؛ إذ لم نرَ عظيمًا على أرض الواقع ينظر إلى نفسه بعين الخنوع والاستخذاء فلم يخرج صقر من بيضة حمامة أو نَسر من بيضة نعامة، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ المتنبي له نفسٌ تنظر إلى السحاب عندما تطأطئ رأسها، وليس ذلك بغريب على الذي يقول في آخر سني حياته: (من الرجز) (العكبري، ٢٠٠٨، ٣/ ٣٢٨_٣٢٩)

ما أَجْـدَرَ الأَيَّـامَ وَاللَّيـالـي ... بِـأَن تَـقـولَ ما لَـهُ وَما لي

لا أَنْ يَـكـونَ هَكَـذا مَقـالي ... فَتىً بِنيرانِ الحُروبِ صالِ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

مِنها شَرابي وَبِها اغتِسالي ... لا تَخطُرُ الفَحشاءُ لي بِبالِ
لَو جَذَبَ الزَّرّادُ مِن أَذيالي ... مُخَيَّراً لي صَنعَتَيْ سِرْبالِ
ما سُمْتُهُ سَرْدَ سِوى سِرْوالِ ... وَكَيْفَ لا وَإِنَّما إِدْلالي

لعل من المُفيد هنا أنْ نذكر أنَّ الرجل الذي يربو عمره على الخمسين يكون أقرب إلى الحلم والأناة منه إلى الصرامة والبَأْس ورباطة الجَأْش _ في الأغلب_ بيد أننا نجد المتنبي على خِلاف ذلك؛ فهو فتى ثَبْت الجَنَان صَلِيب العُود يخشاه الزمن ولياليه وأيامه؛ لأنَّه ابن كَرِيهة يلقي بنفسه في غمار الحرب ويشنّف أسماعه صليلُ السيوف وقعصُ الرماح، فهو يرى من الحرب ما يراه العاشق في وجه عشيقته الحسناء؛ فيرمي بنفسه في هَبَوات الوَغى مقبلًا غير مُدبر مكتفيا بدرع صدره من دونَ ارتداء درع الظهر إذ إنَّه لا يُولي ولا يلوذ بالفرار البتة، ويتبين لنا مما سبق أنَّ نفس المتنبي لم تَشِخْ ولم يخمد لها ضِرام فهي سائرة على المنهاج نفسه من ريّق شبابه حتى آخر أنفاسه.

أحلام اليقظة عند الشريف الرضي

لا مِراءَ في أنَّ مَنْ كان غُصنا من سَرْحَة المجد منتسبًا إلى أجداد عظماء لهم شرف يَزْحَم مَنْكِب الجَوزاء؛ سيتطلع إلى سَنِي المراتب ويحلم بالسير على خطى أجداده الأشاوس وكيف لا يحلم بقيادة الجيوش وتضريب أعناق الأعداء مَنْ كان جده الهِزَبر الباسل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فارس الفرسان وسيد الشجعان[1]، وهذا التأثر المصحوب بقلة المناصرين والمؤازرين وقوة وسطوة وسلطان أعدائه أو أنداده ومنافسيه، حدا بالرضي إلى امتطاء جواد الخيال وامتشاق حسام الأحلام وخوض معارك طاحنة يراها بعين أحلام يقظته فيسرّي بها عن نفسه، ولا أدل على ذلك من قوله: (من السريع) (حَلَاْوِي, ١٩٩٩, ١/ ٣١٧_ ٣١٨)

نَبَّهتُهُم مِثلَ عَوالي الرِماحْ ... إِلى الوَغى قَبلَ نُمُومِ الصَّباحْ
فَوارِسٌ نالوا المُنى بِالقَنا ... وَصافَحوا أَغراضَهُم بِالصِّفاحْ
لِغارَةٍ سامِعُ أَنبائِهَا ... يَغَصَّ فيها بِالزُّلالِ القَرَاحْ
لَيسَ عَلى مُضرِمِها سُبَّةٌ ... وَلا عَلى المُجلِبِ مِنها جُنَاحْ
لا بُدَّ أَنْ أَركَبَها صَعبَةً ... وَقاحَةً تَحتَ غُلامٍ وَقَاحْ
يُجْهِدُها أَو يَنثَني بِالرَّدى ... دونَ الَّذي قُدِّرَ أَو بِالنَّجاحْ

(1) لا طاقة لهذا البحث بتفصيل القول في شجاعة الإمام علي (ع) ومناقبه, وقد ذكر الذهبي طائفة من الأخبار التي تتحدث عن شجاعته وفضائله ومآثره، (يُنظر: الذهبي، ١٩٩٣، ٣/ ٦٢٥_ ٦٣٥).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

.....

مَتَى أَرى الزَّوراءَ مُرتَجَّةً ... تُمطَرُ بِالبيضِ الظُّبى أَو تُراحْ

يَصيحُ فيها المَوتُ عَن أَلسُنٍ ... مِنَ العَوالي وَالمَواضي فِصاحْ

والحق أنَّ هذه الأبيات قد بلغت أقصى غاية الأحلام التي يحلمها الشاعر في يقظته؛ إذ يُخيل إلى مَنْ لم ينعم النظر في سيرة الشريف الرضي وترجمته أنّ شاعرنا قاد حربا ضروسًا أبلى فيها بلاءً حسنًا وقاتل فيها أعداءه ومن معه قتالًا شديدًا أرغم فيها أنوف أعدائه ودَكَّ عروشَهم، ولم يُغالِ مَنْ قال: "إنَّ هذا القصيد خليقٌ بأن يكون نشيد الفُتُوّة العربية وأهلٌ لأنْ يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية؛ فهو جذوة من الفُتُوّة وقبس من الرجولة، وشِهاب من العزم المصمَّم الذي يُطيح المصاعب والأهوال" (مبارك، ١٩٨٨، ١/ ١٨٢)، بيد أنَّ سماء هذا الشِّهاب أقرب إلى سماء الأحلام منها إلى سماء الواقع وكأنَّ هذه الأبيات حُلْم جريء نشأ في أحضان خيال مبدعٍ شامس لا تلين قناته لغامز، يركب الأهوال ويتحدى الصعاب غير آبه بالمخاطر وبمصيره عند الخسارة؛ لأنَّهُ لا يقبل التوسط بين النجاح والفشل فإما حياة حافلة بالانتصارات أو موت مُشَرِّف دونَها، وقد يُخَيَّل إلى القارئ أنَّ نار الحرب التي أوقدها الرضي قد أهلكت الحرث والنسل لولا ترقّبه وتمنّيه نشوب حرب حامية الوطيس في مدينة الزوراء التي تقع في الجانب الغربي من بغداد (يُنظر: الحموي، ١٩٩٥، ٣/ ١٥٦)، وأغلب الظن أنَّه أراد بها بغداد كلها، وفي هذا الحُلْم شجاعة أيّما شجاعة ترسم لنا الخارطة الفكرية لأحلام الشاعر ومآربه وتجعلنا نرى أحلام يقظته رأي العيان.

الأمر الجدير بالتأكيد هنا أنَّ الأحلام الحربية جناحا الشريف الرضي اللَّذان يسمو بهما _نفسيًا_ كلما فُلَّ عزمه أو هِيْضَ جناحه، وهذا نجده في قوله: (من الرَّمَل) (حلاوي، ١٩٩٩, ٢/ ٣٦١)

لَسْتَ لِلزَّهراءِ إِنْ لَمْ تَرَهَا ... كَوُعولِ الهَضبِ يَعجُمنَ اللُّجُمْ

تُستَجَنُّ البيدُ مِنْ فُرْسانِها ... بَينَ بَغْدَادَ إِلى أَرضِ الحَرَمْ

بِعَجاجٍ يَملَأُ الأُفقَ دُجىً ... وَطِعانٍ يَخضُبُ الأَرضَ بِدَمْ

شُرَّعاً تَفتَرُّ عَنْ أَعْناقِها ... قُلَلُ القُورِ وَغِيطانُ الأَكَمْ

كَالرَّدى أَقدَمَ وَالغَيثُ هَمى ... وَالدُّجى طَبَّقَ وَالسَّيلُ هَجَمْ

حَامِلاتٍ كُلَّ غَضْبانٍ بِهِ ... مِنْ لِمامِ الغَيظِ مَسٌّ وَلَمَمْ

كَالصُّقُورِ الغُلْبِ أَلحاظُهُمُ .... كَالجُذى يَلمَعنَ مِن خَلفِ اللُّثَمْ

لَستُ بِالعَاذِرِ جَدِّي إِنْ هَوَى .... وَجُدُودي فِي العُلَى أَعلى الأُمَمْ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وَبَـنَـانِـي خُـلِـقَـتْ أَطْـرَافُـهَـا .... عَـقِـباً لِـلـرُّمْـحِ طَـوْراً وَالقَـلَـمْ
لا يُـرَى مِـثْـلِـيَ إِلّاَ طَـالِـبـاً .... ذُرْوَةَ المِـنْـبَرِ أَوْ قَعْـرَ الرَّجَـمْ

ليس من نافلة القول أنْ نذكر أنَّ خيال الرضي الفذ لا يقل إبداعًا وسعة عن صاحب الإلياذة والأوديسة، غير أنَّ شاعرنا اكتفى برواية قصصه التي كتبتها أيدي أحلامه، فهو لا يصنع أبطالًا وشخصيات رئيسة؛ لأنّه هو البطل الفرد وهو ربان سفينته، وابن ابنة رسول الله (ص) الذي يتطلع إلى إيقاد فتيل حرب شعواء تمتد من بغداد إلى أرض مكة المكرمة وما حولها يملأ قسطل معركته الأجواء وتُسقى أرضها بدماء الأعداء، فضلًا عن أنَّ أنصار الرضي فرسان لا يشق لهم غبار ولا يخمد لهم ضرام ينقضون على أعدائهم بعيون تقدح شررا كانقضاض العُقاب على فريسته، ومن الجدير بالذكر أنَّ إطلاق هذه النعوت على أتباعه يدل على أنَّ قائدهم أكثر شجاعة وإقدامًا وأشد مضاءً وعزمًا منهم، ولا مِراءَ في أنَّ " الحلم هو الترياق الأولي لكل فكر يخشى على ذاته التلاشي، أي البقاء والاستمرار، وهو عملية لا يمكن إدراكها إلا خارج النسيج الاجتماعي والثقافة السائدة، وهي المنظومة التي تَسِم كل فكر يدرك ذاته خارج التاريخ المتحقق بالفكر الزائغ، والحلم هو المنفلت، والحلقة التي تُشكل مدارات التأسيس، وقد كان الحالمون دائمًا محط إقصاء اجتماعي؛ ... لأنَّ الجديد يُخيف دائما ويثير الشك والريبة، فتستكين البشرية في الغالب إلى القائم وتعتبره أقصى الممكنات"(بوخليط، ٢٠١١، ٢١)؛ ونتيجة لذلك رغب الرضي في كسر أُفق التوقع وخَلْقِ آفاق جديدة تميزه مِنْ غيره وتُنيله الحظ الأوفر والسهم الفائز مِنَ الشّعور بالتفرد وانقطاع النظير؛ إذ إنَّهُ مِنْ ذوي الحسب النَّاصِع ومِنْ أهل بيت له سابِقَةُ السِّيادة، كما أنَّ تقديره العظيم لذاته جعله يرى أنَّهُ فارس صنديد في ميدان الحرب والشعر على حد سواء؛ مما حدا به إلى أنْ يضرب صفحًا عن حياةٍ لا تتجسد فيها أحلام يقظته على أرض الواقع، ويُفضل عليها انقضاء أجله.

ولا يكتفي الرضي بذلك وإنَّما نراه يقص علينا أحلام يقظته كما لو أنَّه قام بها فيما سبق، أليس هو الذي يقول: (من الطويل) (حلاوي، ١٩٩٩, ١/ ٢٨٠)

وَحَـيٍّ مِـنَ الأَعـداءِ بـاتـوا بِلَيلَةٍ ... مُـنَـعَّـمَـةٍ لَـوْ لَـمْ تُـذَمَّ غَـدَاتُـهـا
وَخَـيـلٍ خَـشَـشْـنـا جَـوَّهُم بِرِماحِنا ... كَـمـا خَـشَّ آنـافَ القُـرُومِ بُـرَاتُها
فَمَا استَيقَظوا حَتَّى تَدَاعى صَهِيلُها ... وَقَـدْ سَـبَـقَـتْ أَلـحَـاظَـهُـمْ عَـبَـراتُها
وَلَمْ يَنْجُ إِلّا مَـنْ تَـخَـاطَـتْ سُـيُـوفُنا ... وَذَاقَ الـرَّدَى مَـنْ عَـمَّمَتْ شَفَراتُها
قَـواضِـبُ لا يُـودَى بِشَـيءٍ قَتِيلُها ... إِذا أَمسَـتِ القَـتْـلـى تُـسـاقُ دِيَاتُها

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

أَنِسْنَا بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَإِنَّنَا ... لَنَحْنُ مُحِلُّوها وَنَحْنُ سُقَاتُها
نَبَتْنَ لِأَيْدِينا خُصُوصاً وَإِنَّما ... لَنَا يَتَوَاصى بِالطِّعَانِ نَبَاتُها
بِأَبْوابِنا مَرْكُوزَةٌ وَإِلى الوَغَى ... تَزَعْزَعُ فِي أَيْمَانِنَا قَصَبَاتُهَا

نحن هنا أمام بطولات لا يفعلها إلا جيش عرمرم يقوده فارس مغوار يدك به الحصون ويثل العروش أنَّى شاء ومن ثَمَّ يروي ذكرياته المليئة بالبطولات الملحمية بكل كِبْرٍ واختيال؛ لينال إعجاب مستمعيه وإكبارهم ويغدو في أعينهم أشجع الشجعان، إلَّا أنَّ هذا العباب الزاخر من البطولات يصبح سرابًا عندما نطالع ترجمة شاعرنا ونحيط بها خُبْرا؛ إذ لم يُصبِح الرضي حيًا ما بغارةٍ تملأ جوه سهامًا ورماحًا ويعلو فيها صوت الصهيل على صوت الطائر الغرِّيد، ومن ثَمّ تجري دموع أعدائه السواجم بعد أن يقتل شاعرنا وأتباعه مقتلة عظيمة منهم تشيِّب الأصداغ، غير أنَّ هذا السراب الذي حسبناه موجًا متلاطمًا قد يروي ظمأ مَنْ رأى في الرضي ملكًا على عرش الأحلام أحبَّ عالم أحلام اليقظة واستعذب التشريق والتغريب فيه، وإرساء دعائم دولة سعادته التي يسافر إليها كلما انسدت الدنيا بعينه وضاقت به السبل، ولا غرابة في ذلك؛ " فبواسطة الخيال نستطيع تجاوز المعرفة الإدراكية المحدودة عبر عملية خلق وابتكار معانٍ جديدة، وبه أيضًا نستطيع منح التفكير مساحة هائلة للتحرك الحر من خلال الصور بغاية إخضاع الواقع لإرادتنا الخاصة"(الديهاجي، ٢٠١٤، ٥١)، وقد أخضع الرضي الواقع لإرادته حينما بين لنا أنَّ كثرة انتصاراته _ المُتَخيَّلة_ جعلته يأنس بصحبة السيوف والرماح كما يأنس الظامئ برؤية الماء النَّمير؛ فيده والرمح كالشجرة وغصنها وهو لا يفارق سلاحه واضعا إياه أمام بابه لكي يُذكّره بوجوب حمله وخوض غمار الحرب كلما سنحت له الفرصة، ولن يكون غريبًا أنْ نقول: إنَّنا أنسنا بهذا الخيال الأخَّاذ وهذا الحُلْم الماتع، وازددنا إعجابا بشخصية الرضي السامقة.

أحلام اليقظة عند أبي العلاء المعري

من الطريف والمؤنس أنْ نتحدث عن بصير فَذ استمال قلبه حب الفروسية وضرب السيوف وقعص الرماح على غير عادة الأكِفَّاء الذين يميلون إلى الاستكانة والحِلم والأناة، ولا جَرَمَ أنَّ المعري يرى بعين بصيرته ما لا يراه المُبصرون، فهو صاحب فكر نَيِّر لا يُلفى نظيره وخيال أوسع من البحار وأغزر من المحيطات وقد توَّج هذا كله بتاج الإباء والشموس والتوق إلى أسمى الرُّتَب والرغبة في التقدم على الأقران في الميادين كلها؛ ولِذا تفوق المعري في ميدانَي الشعر والنثر وحلم أحلام يقظة بالتفوق في ميدان الحرب، ولا أدل على ذلك من قوله: (من السريع) (المعري، ١٩٨٦، ٥/ ١٩٢٩ _ ١٩٣٩)

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

مَا نَـخَـلَـتْ جـارتُنَـا وُدَّهَـا ... يَـوْمَ تَـرَاءَتْ بِـكَـثِـيـبِ النُّخَيْلْ
قَامَـتْ أَمَـامَ الرَّحْـلِ مِثْلَ الَّتِي ... تَـأْمَـتْ أبا النَّجْمِ غَدَاةَ الرُّحَيْلْ
لَـقَـدْ أَرَانِـي لابِـسًا نَـثْـرَةً ... أَسْحَبُ مِنْهَا في الوَغَى فَضْلَ ذَيْلْ
يَـحْسَبُـهَـا الضَّـبُّ إذا أُلقِيَتْ ... في أرضِهَا الغَبراءِ عُثْنُونَ سَيْلْ
يَـشْـتَـدُّ خَـوفًـا بـعـدَ إخـبـارِهِ ... حُـسَـيْـلَـهُ عَنْها وأُمَّ الحُسَيْلْ
هَالَتْ وَمَا هِيْلَتْ وَفَاضَتْ عَلَى الصَّاعِ ولَمْ يُملأ بها صاعُ كَيْلْ
أَعِـيْـلُ فـيـهـا كـأَخـي لِبْدَةٍ ... عَـائِـلِ شِبْـلَـيْـنِ حَـلِـيفٍ لِعَيْلْ
وَقَـدْ أَقُـودُ الطِّـرفَ مُسْتَأْسِدًا ... رَائِـدَ بَـقْـلٍ مَـرَّةً أوْ بُـقَـيْـلْ
أُسِيْلُ مَأْقَ العَنْسِ في أَكْحَلٍ ... تَـنْـضَـحُ ذِفْرَاهَا بِمِثْلِ الكُحَيْلْ

قد يفرح الكفيف حين يُبصر ما حوله في أحلامه ويتمنى أن يطول نومه ويصبح الحلم حقيقة لا يكدّر صفوها الاستيقاظ, وهذا الانتشاء والحُبُور يحض المرء أحيانًا على الرغبة في الاستزادة من هذا السرور والعيش في دنيا الأحلام في منام الإنسان ويقظته على غرار أبي العلاء الذي رسم لنفسه صورةَ بطلٍ شاكي السلاح لم تُصْفِ له حبيبته وجارة فؤاده الوُدَّ حينما اعترضت طريق ذهابه إلى المعركة مرتديا درعًا حصينة لا تقتصر وظيفتها على حماية صدر الفارس؛ لأنها عظيمة تلامس أرض المعركة حينما يحملها المحارب، تستظل بها الأرض فيحسبها الضّب ديمة مدرار يعقبها سيل جارف فيلوذ بالفرار وقت رؤيتها هو وابنه وزوجته؛ إذ "زعموا أنَّ الضَّب يكره الماء"(المجذوب، ١٩٨٩، ١/ ٥٧)، مما يسمها مِيسم المهابة ويجعلها تقذف الرعب في قلوب الأعداء؛ لعجزهم عن إلحاق الهزيمة بالفارس الذي يستجن بها، فضلًا عن أنَّ الدرع العظيمة لا يقتدر على حملها والقتال بها إلا فارس قوي شَديد الأَسْر، وهذه القوة والبسالة والفتك هي حُلم يقظة شاعرنا الذي تاق إلى التبختر بدرعه كما يتبختر أشجع الأسود وأفرسها، وقود الخيل بإقدام وجرأة تحاكي جرأة الهِزَبر الباسل مُجريا عيون إبله _ التي تسبق خيله وتحمل متاع جيشه_ دمعًا وجلودها عرقا لشدة ما أزرى بها من التعب، وكأنَّ شاعرنا يروم إدراك ثأره من الدنيا التي جعلته رهين المحبسين وفك أسره بجيوش أحلامه التي يبلغ بها مأموله وينال سؤله.

تجدر الإشارة إلى أنَّ المعري قد دعا إلى نيل المطالب والرغائب بركوب الأهوال على النحو الذي يدعو فيه من ظفر ببغيته بحدّ سيفه، فانظر إليه حين يقول: (من الوافر) (المعري، ١٩٩٤، ٣/ ٢٨٣ _ ٢٨٤)

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وَيَكفيكَ التَقَنُّعُ مِنْ قَريبٍ ... عَظائِمَ لَيسَ تُبلَغُ بِالتَّوَنّي
صَريرَ الرُمحِ في زَرَدٍ مَنيعٍ ... وَوَقعَ المَشْرَفِيّ عَلى المِجَنّ
وَحَملَ مُهَنَّدٍ يَسطو بِعَيرٍ ... وَقُورٍ لَيسَ بِالأَشِرِ المُرِنّ
وَلا شَلّالِ عاناتٍ خِماصٍ ... وَلَكِن خَيلِ جَيشٍ مُرجَحِنّ
يَرى عَذْمَ الأَوابِدِ غَيرَ حِلٍّ ... وَيَعْذِمُ هامَةَ البَطَلِ الرِّفَنّ
وَما يَنَفكُّ مُحتَمِلاً ذُباباً ... أَبى التَغريدُ في الخَضِرِ المُغِنّ
وَإِنْ أَنا قُلتُ لا تَحمِل جُرازاً ... فَهُزَّ أَخا السَفاسِقِ وَاضرِبَنّي
فَنَصلُ السَيفِ وَهوَ اللُجُّ يَرمي ... غَريقاً فَوقَ سَيْفٍ مُرفَئِنّ
وَضاحيهِ يُزيلُ غُضونَ وَجهٍ ... وَيَبسُطُ مِنْ وِدادِ المُكبَئِنّ

قد يُخيَّل إلى مَنْ لَمْ يطلع على سيرة المعري أنَّ هذه الأبيات من نَظم ملك همام بنى ملكه على الأَسَل وأطّد دعائمه بتضريب أعناق الأعداء، وكأنّ المعري يرغب في تمزيق الصفحات التي تتحدث عن فقدانه لبصره واستبدالها بصفحات يكتب بها تاريخا جديدا وحكاية مشرقة بطلها شاعر مُفلق وفارس فاتك قوي الجأش، يحمل سيفًا صارمًا يكر به في المعركة فيهزم الجيوش ولا ينهزم ويفلق هامات الكُماة الأشاوس، ومن سجاياه أنَّهُ لا يعبأ بمشاهدة المروج الخضراء والاستجمام بها وإنّما يأنس بروية الحرب الشعواء ويسعده استنشاق قسطلها؛ لأن سيفه يعزف على أوتار الرقاب ويصمت في الرياض والجنان.

وجملة القول: إنَّ هذا الحلم المؤنس الشيّق قد ربت على كتف شاعرنا وهون عليه ما اعتراه من آفة العمى التي حالت دون حمله السلاح، ونيل أوطاره بالحسام والسنان بدلا من الكلام الذي لا يتخطى حدود الأحلام التي ترتمي طائفة من الشعراء في أحضانها حينما يعز عليهم تغيير واقعهم، ولا مِراءَ في أنَّ " الإنسان الحساس لا تُترجم انفعالاته إلى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة من الخواطر والتأملات والأحلام وهذه ... تولّد في الروح طموحا إلى الرِّفعة واستنكارًا للضَّعَة؛ مما يجعله دائب البحث عما يبرر شعوره ذلك"(روسو، ٢٠٠٩، ٣١)، على النحو الذي عمد فيه المعري إلى إعلاء محله والانخراط في سلك الفرسان الأشداء الذين يدعون إلى حمل السيف والذود عن حياضهم بأسلحتهم ويغالون في الدعوة إلى ذلك إلى الحد الذي يرون فيه القعود عن القتال جرمًا يستأهل أنْ يُضرب الداعي إليه على خَيْشُومه بسيف منصلت، فضلًا عن أنَّه يرى أنَّ شفرتي السيف فيهما نجاة وهلاك في وقت معا؛ فالحسام جُنَّة وملاذ لحامله وهو في الوقت نفسه موت زؤام لعُداته يحز فيه

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

رقابهم مثلما يقطِّع حَطَّاب ماهر أغصان شجرة وارفة، ويجعل كل وجه عبوس قمطرير مبتسما مستبشرا خوفًا ورهبة، ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا الحلم بين لنا الحال والشاكلة التي تمنى شاعرنا أنْ يكون عليها، ورسم لنا الوجه الآخر الذي تاق المعري إلى العيش به ونيل منتهى طلبه.

تجدر الإشارة إلى أنَّ فؤاد أبي العلاء مشغوف بِقَوْدِ الخَيل والعُلا والمعالي التي يرى أنَّ الحسام المهند هو الطريق الأمثل إلى الظفر بها، ولا أدل على ذلك من قوله: (من الطويل) (المعري، ١٩٩٤، ٣/ ١٤٠)

زَمَمتُ المَطايا لِلوَجيفِ وَلَم تَكُن ... تُنالُ المَعالي بِالمَطِيِّ المُذَمَّمِ
وَلَكِن بِأَطرافِ القَنا وَكُعوبِهِ ... وَضَربِ الهَوادي بِالحَديدِ المُسَمَّمِ
وَجذبِ رِداءٍ يَدرُجُ النَملُ فَوقَهُ ... لِتَعميمِ رَأسِ الهِبرِزِيِّ المُعَمَّمِ

يبدو لنا أنَّ معرفة المعري بموت أحلامه المحتم أخذت بضَبْعه إلى العمل على تحنيطها بوساطة نظم الكلام وتدبيجه ونسجه بصورة تلفت انتباه القارئ والسامع وتثير إعجابهما بالحلم والحالم والشعر والشاعر في الوقت نفسه، لكي لا يُلام هو ومَنْ يُشاكله على التحليق في سماء الأحلام ويواصل سرد بطولاته _ الحُلْمية_ بملئ فمه، مصورا لنا معركة حضَّ فيها خيله وإبله على السير السريع نحو الهدف المنشود؛ إذ لا ينال سني الرغائب بمطي كسولة رابضة متخلقة بسجايا أصحابها، وإنَّما تنال المعالي المتمناة برماح مشرعة تشق الدروع والقلوب وسيوف مسلولة تقطّع الأعناق لتنهل من دماء الأعداء، فضلًا عن أنَّ جوهر هذه السيوف كأنَّه ممر النمل _ لما فيه من آثار الضربات_ فهي تلبس رؤوس العِدا عمائم من دمائهم وتثل عروشهم.

وليس من نافلة القول أنْ نذكر ما لمسناه من إباء وشمم انماز بهما شاعرنا الحالم الذي لم يرتضِ الانخراط في سلك الأكِفَّاء وانتهاج منهاجهم واختار طريقا مغايرًا بَذَّ به المبصرين كِبرا وأنفة وإقدامًا؛ فأصبح شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء وفارس الحالمين.

الموازنة بين المتنبي والرضي

لعل من البديهي أنْ نقول: إنَّ تقدم الشاعر المُفلق على أقرانه وتفرّده يجعله ذائع الذِّكْر مُسْتَفِيض الشُّهْرَة، وهذه النباهة سوف تؤدي إلى استمالة قلوب فئة من الناس وكسب ودهم إلى الحد الذي يجعلهم يفضلونه على أترابه وأقرانه؛ مما يؤدي إلى انقسام الناس على شِيَع مختلفة تتبع كل فئة منهم شاعرا مبدعًا وتُبَوِّئُهُ أرائك قلبها وتُنيله قَصَب السَّبْق، وليس ذلك بغريب؛ إذ "فُطِر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء، وليست الموازنة إلا ضربًا من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان" (مبارك، ٢٠١١، ٩)، ونحن هنا لسنا في صدد الكشف عن الجودة والرداءة؛ لأننا أمام جبلين شعريين سامقين، وفارسَي بيان لا يشق لهما غبار، فضلًا عن أنَّ الموازنة العامة بينهما تستوجب إجراء موازنة شاملة بين ديوانيهما، ولا طاقة لبحثنا بذلك؛ ولِذا نعمد إلى إجراء موازنة مقتصرة على أحلام اليقظة، نستهلها بقول أبي الطيب: (من المتقارب) (العكبري، ٢٠٠٨, ٤/ ١٩٢_ ١٩٤)

أَنا ابنُ اللّقاءِ أَنا ابـنُ السَخاءِ ... أَنا ابنُ الضِرابِ أَنا اِبنُ الطِعانِ
أَنا ابنُ الفَيافي أَنا اِبنُ القَوافي ... أَنا ابـنُ السُروجِ أَنا ابنُ الرِعانِ
طَـويلُ النِّجـادِ طَويلُ العِمـادِ ... طَويـلُ القَنـاةِ طَـويـلُ السِّنـانِ
حَـديدُ اللِّحاظِ حَديدُ الحِفاظِ ... حَـديـدُ الحُسـامِ حَديدُ الجَنانِ
يُسـابِـقُ سَيفي مَنـايـا العِبـادِ ... إِلَـيـهِـمْ كَـأَنَّـهُـمـا فـي رِهـانِ
يَـرى حَـدُّهُ غـامِضـاتِ القُلوبِ ... إِذا كُـنـتُ فـي هَبـوَةٍ لا أَراني
سَـأَجـعَـلُـهُ حَـكَـماً فـي النُّفُوسِ ... وَلَـوْ نـابَ عَنـهُ لِساني كَفاني

مما يحسن التنبيه إليه أنَّ طغيان الأنا عند المتنبي متأت مِنْ الرغبة في إعلاء شأن الذات، وإطلاق العنان لخيول أحلام اليقظة التي تنقع غليل الحالم _ أحيانا_ وتُسرّي عن نفسه، وهذا الحلم الحربي يخبرنا عن تَوْق المتنبي إلى أنْ يصبح فارسا أسطوريا يحلم كل فارس فاتك بالوصول إلى مكانته المنيفة؛ لأنَّه ملازم للضرب والطعن وركوب الخيل والسلوك في الجبال وقطع الأراضي القفار وإكرام الضيف وهو ابن هذه الأشياء؛ إذ إنَّه منسوب إليها وهي منسوبة إليه فهو وإياها وجهان لعملة واحدة، فضلا عن أنَّه قوي البصر والبصيرة والقلب حينما تدور رحى الحرب يقبض سيفه الأرواح ويقصّر الأعمار وتبصر عينه قلوب العِدا في الوقت الذي يحول فيه غبار المعركة دون رؤية المتنبي أعداءه، فضلا عن أنَّ لسان شاعرنا يبلي بلاء حسنا لا يقل عن حسن بلاء حسامه، وقد اقتفى الرضي أثر المتنبي وسار على منهاجه حين قال: (من السريع) (حلاوي، ١٩٩٩, ١/ ٣٩٧_ ٣٩٨)

أَنا الَّـذي يـوسِعُـها جَـولَةً ... تُـجَـفِّـلُ الذَودَ عَنِ الذائِدِ
أَنا الَّـذي يوطِـئُ أَكتافَها ... ما رَنَّ رُمْـحٌ بِيَـدَي مـارِدِ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

أَنا الَّـذي يُـضـرِمُ آفاقَها ... كَـأَنَّـهـا مَـعـمَـعَـةُ الواقِدِ
أَنا الَّذي يوجِرُ أَبطالَها ... ضَرباً كَخَبطِ الجَمَلِ الوارِدِ

إنَّ من ينعم النظر في هذه الأبيات سوف يجد أنَّ صوت الرضي هو صدى لصوت المتنبي وأنَّ أحلام يقظته لا تختلف في شيء عن أحلام أبي الطيب؛ فهو الذي يصول ويجول في حرب شعواء تفزع فيها الناقة المطمئنة ممن يسوقها إلى الماء، ويعتو بحربه هذه على من عتا ويرغم أنوف الخارجين عن طاعته عندما يوقد نار حربه المضطرمة ويوسع الأبطال ضربا بسيفه وطعنا برمحه الذي ينطلق نحو صدور الأعداء أو أفواههم بشكل عشوائي مثلما يهرع الجمل الصادي إلى الماء ضاربا كل من يعترض طريقه، وهذا الحُلم الذي يقطر إباءً وعزما ومضاءً امتداد لعزم المتنبي وحزمه وقوة شكيمته، فالرضي متأثر بالمتنبي أيّما تأثر " وكل من يقرأ ديوانه يحس الصلة واضحة بينه وبين المتنبي؛ فقد كان يحتذي شعره احتذاءً، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر والاعتداد بنفسه"(ضيف، (د.ت)، ٣٥٣)، وينتهج منهاج أبي الطيب في معاقرة كؤوس الأحلام وهو في شعره بعامة فرع من دوحة المتنبي، ومن الإنصاف والعدل أنْ نمنح المتنبي قصب السبق في هذه الموازنة؛ إذ إنَّه كان أغزر خيالًا وأكثر تفصيلا وتبيانا لحسن بلائه وصعوبة مراسه ومهارته في استعمال سيفه الصارم، فضلًا عن فصاحته وحسن بيانه، غير أنَّ أحلام يقظة الرضي بعامة لا تقل إبداعا وكما عن أحلام المتنبي وسوف نفصل القول في ذلك فيما بعد.ويجمل بنا أنْ نذكر قول أبي الطيب: (من الوافر) (العكبري، ٢٠٠٨، ٤/ ١٢٠_١٢١)

إذا غَـامَرتَ في شَرَفٍ مَرومٍ ... فَـلا تَـقنَـع بِـما دونَ النُّجُومِ
فَطَعمُ المَوتِ في أَمرٍ صَغيرٍ ... كَطَعمِ المَوتِ في أَمرٍ عَظيمِ
سَتَبكي شَجوَها فَرَسي وَمُهري ... صَـفـائِـحُ دَمعُها ماءُ الجُسومِ
قَـرَبـنَ النَّارَ ثُـمَّ نَشَـأنَ فيها ... كَـما نَشَأَ العَذارى في النَّعيمِ
وَفارَقـنَ الصَّـياقِلَ مُخلَصاتٍ ... وَأَيـدِيـهـا كَـثِـيـرَاتُ الـكُـلُـومِ

يبدو لنا أنَّ المتنبي اتخذ من الحكمة مفتاحًا لأبواب الأحلام ومسوغًا للعيش في دنيا أحلام اليقظة وتصديق الناس إياها أو إيمانهم بإمكان تحقيقها ومن ثَمَّ شرع في الكشف عن هوية قائد صَمْصَام آلمه وساء سيوفه ما كان من أمر قتل فرسه التي لطالما حملته وإياها إلى أرض المعركة وهو أقوى شكيمة من أسيافه التي سوف تبكي فرسه بدمع ماؤه دماء أعداء شاعرنا التي سقى حسامه منها، فضلًا عن أنَّ سيوف شاعرنا الماضية البتارة، نهلت من النار حتى روت غليلها ونشأت فيها حتى

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

فضلت على سائر السيوف حسنًا وصرامة ورهافة، ولم تسلم من أذاها أيدي الشحاذين والجلَّائين التي أثخنتها بالجراح، ولا مُشَاحَّةَ في أنَّ تأكيد قوة سلاحه وفتكه متأتٍ من رغبة الشاعر في الإعراب عن علو كعبه وثبات جَنانه وصلابة عوده.

وأغلب الظن أنَّ عدم تفصيل المتنبي القولَ في حُلْم يقظته كان نتيجة لعمل الشاعر على فسح مجال التأمل والتفكّر للقارئ الحصيف وإتاحة الفرصة لأعدائه لكي يتدبرون أقواله ويخشون مغبة تحقيق أحلام يقظته.

وقد اقتفى الشريف الرضي أثر المتنبي وانخرط في سلكه حين قال: (من الوافر) (حلاوي، ١٩٩٩, ٢/ ٣٤٧ _ ٣٤٨)

أَرى نَفْسي تَتوقُ إِلى النُّجُومِ ... سَأَحمِلُها عَلى الخَطَرِ العَظيمِ
وَيَعرِفُني العَدُوُّ بِوَقعِ رُمحي ... إِذا ما الوَجهُ مُوِّهَ بِالسُّهُومِ
وَما لي هِمَّةٌ إِلّا المَعالي ... وَذَبُّ الضَّيمِ عَن نَسبٍ صَميمِ
وَقَودُ الخَيلِ تَركَعُ مِنْ وَجاها ... وَقَدْ غَلَبَ النَّجيعُ عَلى الكُلُومِ
تُصَبَّحُ في الطُلى بِذَراكِ طَعنٍ ... كَرَمحِ الشَّولِ زُغنَ عَنِ المُسيمِ
وَيُذْهِلُها إِذا التَقَتِ العَوالي ... ضِرامُ الطَّعنِ عَن مَضغِ الشَّكيمِ
وَكُلُّ نَحيلَةٍ كَالسَّهمِ تُصْمي ... عَرانينَ الأَماعِزِ وَالخُرُومِ
وَحَثُّ العِيسِ تَستَلِبُ الفَيافي ... بِإِملاءِ الذَّمِيلِ عَلى الرَّسيمِ

هناك من يتحدث بإيجاز عن أحلامه وأماني نفسه وما يدور في خلده لغاية فنية أو نفسية وفي خلاف ذلك نجد فئة من الشعراء يميلون إلى تفصيل القول والبوح بما اكتن في صدورهم وما يتطلعون إليه أو يفكرون فيه بطريقة أقرب إلى الأحلام منها إلى الواقع على غرار الرضي الذي فصل القول في حلم يقظته وكتب على بحر قصيدة المتنبي نفسه والقافية نفسها ثم شرع في إماطة اللثام عن وجه فارسٍ يُعرف برؤية وجهه أو بإصابة رمحه كبد عدوه, وحريّ بالفارس الذي يتسم بهذه الخلال السامقة أن يعرب عن تطلعه إلى قيادة جيش تغتسل خيله بدماء الأعداء وتُذهلها رؤية توالي طعن الرماح وتتابع ضرب السيوف ويشغلها هذا المنظر عن التفكير في شيء آخر؛ فتنطلق انطلاق السهم وتقطع الأرض الصلبة وتشق أنف الجبل وقلله، ولم يكتفِ شاعرنا بقيادة الخيل وإنَّما يشفعها بحضّ الإبل على قطع المفاوز مسرعة بلا هوادة، وهذا التفصيل مزية اصطفاها الرضي لنفسه وبذ بها سائر

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

الشعراء[٢], بيد أنَّ الرضي على الرغم من هذه المزية لم يتفوق على المتنبي في الجانب الفني؛ إذ إنَّ تفصيله أقرب إلى السرد منه إلى الفن في معظم أحلام يقظته مع بعض المبالغات التي تلبس أبياته ثوب الإبداع أحيانًا، "غير أنَّه ينبغي إذا ذكرنا المتنبي معه أنْ نضعه في مرتبة متخلفة عنه؛ إذ يتفوق المتنبي عليه في جمال التعبير وقوته، وعلى كل حال كان الشريف يُحاكي المتنبي ويُلفق كثيرا من معانيه وحكمه في نماذجه"(ضيف، (د.ت)، ٣٥٤)، وهذه المحاكاة لا تحط من شأن الرضي؛ لأنَّ هذا المنهاج قد انتهجه جل الشعراء الذين جاؤوا بعد حقبة المتنبي، فضلًا عن أنَّ كثرة أحلام الرضي وجودتها وقلة أحلام شعراء عصرة _ مقارنة بأحلامه_ تهبه القِدح المُعلّى والسهم الفائز وتجعله ملكًا على عرش أحلام اليقظة.

الموازنة بين المتنبي والمعري

إنَّ الإعجاب الذي يصل إلى حد الاقتداء يجعل المقتدي ينظر إلى المقتدى نظرة الضال عن سبيله إلى نجم يهتدي به نحو غايته وعلى هذا النحو نظر المعري إلى أبي الطيب المتنبي الذي اتخذه مثالًا يحتذى به وقدوة ومُلهما ومن البديهي أنْ ينتهج المقتدي منهاج المقتدى به فيحاكي أسلوبه الأدبي وتشابه أفكارُهُ ما أُولعَ به من أفكارِهِ، وتمنى أنْ يكون عليه قولًا وفعلًا، ولا يختلف اثنان في إعجاب المعري بالمتنبي؛ إذ " كان أبو العلاء يُفضل أبا الطيب المتنبي على غيره من الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وغيرهم، وإذا ذَكَرَ أحدًا منهم أو أورد له شيئًا يقول: قال أبو تمام، قال البحتري، قال ابن الرومي، وإذا أورد شيئا لأبي الطيب المتنبي يقول: قال الشاعر، وشرح ديوان أبي تمام وسمَّاه ذكرى حبيب، وشرح ديوان البُحتُري وسَمَّاه عبث الوليد، وشرح ديوان المتنبي وسَمَّاه مُعْجِز أحمد"(البديعي، ١٩٤٤، ٢٩)، وهذه النظرة الإعجازية تنم عن إعجاب أيّما إعجاب وتفضيل مُنْقَطِع النَّظير؛ ولِذا اتبع المعري سبيل المتنبي في أحلام يقظته وبدا هذا الاتباع واضحا في بعض قصائده ولا سيما الدرعيات التي تبدو أول وهلة شعرًا على لسان الآخر وحسب في حين يتبدى لمن ينعم النظر فيها أنَّها ظاهرة فريدة في الأدب العربي وقد أكثر فيها المعري من قصائده التي قيلت على لسان رجل ضعف عن لبس الدرع إبَّانَ شيخوخته أو امراة توصي ابنها بتفضيل الدرع على الزواج وما إلى ذلك، ويبدو لنا أنَّ الدرعيات جاءت تعويضًا عن عدم تمتع أبي العلاء بارتداء الدروع

---

(٢) إذ لم يُفَصّل شاعر القول في أحلامه مثلما فعل الرضي؛ ودونك أحلام يقظته التي لا طاقة لبحثنا ببسط القول فيها وتحليلها: (حلاوي, ١٩٩٩, ١/ ١٣٩, ١/ ٢٧٩, ١/ ٣٠٠, ١/ ٣١١, ١/ ٣٨٥, ١/ ٥٠١ _ ٥٠٢, ٥٠٣, ١/ ٥٩٢, ٢/ ٥٣, ٢/ ١٣٢, ٢/ ١٤٥ _ ١٤٦, ٢/ ١٥٨, ٢/ ١٦٥, ٢/ ٥٠٠, ٢/ ٥٠٦).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وحمل السيوف نتيجة لفقده بصره؛ فغدت هذه الدرعيات أحلام يقظة تعوضه عما فقده من لذة الشعور بالفروسية والإطاحة بالخصوم والاستبسال في سوح الوغى، وهي معادل موضوعي لأمنيات شاعرنا المحالة، ولو أماط المعري اللثام عن درعياته وقال: إنَّه هو القائد وهو البطل فيها، لما سلم من انتقاد الناس واستهزائهم، ووصفهم إياه بنعوت لا تليق به.

وحري بنا أن نستهل الموازنة بينهما بقول أبي الطيب: (من الطويل) (العكبري، ٢٠٠٨, ١/ ٣٧٦_ ٣٧٧)

أَقَلُّ فَعالي بَلْهَ أَكثَرُهُ مَجدُ ... وَذا الجِدُّ فيهِ نِلتُ أَم لَمْ أَنَل جَدُّ
سَأَطلُبُ حَقّي بِالقَنا وَمَشايِخٍ ... كَأَنَّهُمُ مِنْ طولِ ما التَثَموا مُرْدُ
ثِقالٍ إِذا لاقَوا خِفافٍ إِذا دُعُوا ... كَثيرٍ إِذا شَدُّوا قَليلٍ إِذا عُدُّوا
وَطَعنٍ كَأَنَّ الطَّعنَ لا طَعنَ عِندَهُ ... وَضَربٍ كَأَنَّ النّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ
إِذا شِئتُ حَفَّتْ بي عَلى كُلِّ سابِحٍ ... رِجالٌ كَأَنَّ المَوتَ في فَمِها شَهْدُ

قد يعشق المرءُ المجدَ والرفعة والسمو إلى الحد الذي يجعل له هِمَّةً بَعِيدَة المَرْمَى متأتية من نفس رَفيعَة الأَهواء لا يروقها من المجد إلَّا كثيره مهما قل فعلها ولا يستميلها ويعجبها من الأحلام إلا أسماها وأرفعها؛ مما يجعل أحلام يقظته تدور في فلك القوة والمَنَعة والعزة القعساء، وها هو شاعرنا الباسل يرغب عن طلب حقه بالاستعطاف أوالالتماس ويتطلع إلى طلبه برماحه وسيفه وسيوف أشياخ مجرّبون يعشقون الحرب ولا يفارقونها ولا يميطون اللثام عن وجوههم لأنَّهم في حرب سرمدية، اكسبتهم حنكتهم فيها الثبات عند ملاقاة الأعداء وعدم التقاعس عن نصرة أخيهم أو قائدهم حين يندبهم وهم على قلتهم يسدون مسد جيش عرمرم؛ إذ إنَّ مشاهدة طعنهم بالرماح وضربهم بالسيوف تجعل الرائي يحسب أنَّ ما شهده من وقائع وما شاهده من حروب في سالف أيامه عبثًا محضا وهباءً في هباء، فضلًا عن أنَّ صلابة عودهم وشدة بأسهم تجعل قائدهم ينام على جناح السكينة والاطمئنان؛ لأنَّ لديه رجال يطيرون إليه زرافات ووحدانا متى شاء ويأنسون بالموت بين يديه كما يأنس الصادي بنقع غليله.

والحق "أنَّ ثمة رغبة فطرية في الانفلات من عالم الواقع إلى عالم أحلام اليقظة الذي يتخذ امتداده المتميز في العمل الفني"(عفيف، ١٩٨٧، ٢٩٤) ويمنح الحالم هزة وأريحية ويشعره بإحساس فيه شيء من تحقق أحلامه المُتخيلة، ورؤيته إياها رأي العيان، فضلا عما يعززه من شعور بالاقتدار على الوصول إلى المكانة السامقة المنشودة والمحل الرفيع المبتغى.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وليس من نافلة القول أنْ نذكر ما قاله أبو العلاء المعري (من الخفيف) (المعري، ١٩٨٦، ٤/ ١٧٩٦ _ ١٧٩٩)

أضْرِبُ الضّرْبَةَ الفَريغَ كفِي البا ... زِلِ أحْيـا لـه المُـرارُ مَـرِيـرا
بِـرَسـوبٍ يَهْـوي إلـى ثَـبْرَةِ المـا ... ءِ ولـو أنَّـهُ أصـابَ ثَبيرا
وإلـيـهـا نَـجْلاءُ يَـرْهَـبُـهـا الشَّـيْـ ... ـخُ كما يَرْهَبُ الصّغيرُ الكَبيرا
أبَـدَتْ ضَـيِّـقاً بها خَـبَـرُ المُـخْـ ... ـبِـرِ فِـعْـلَ الفَنيقِ أبْدى خَبيرا
هَـدْرُها يُـسْـكِتُ البَليغَ ولـو زا ... دَ على المُصْعَبِ الأعَزّ هَديرا
كَـالقَـليبِ النَّزُوعِ في القلبِ لا تُنْ ... بِـطُ إلاّ الدَّمَ الغَـريضَ زَبيرا
أسْـهَـرَتْـهُ وأهْـلَـهُ وهْـيَ كالمَـغْـ ... ـمورِ نوْماً تُحِسُّ منها شَخيرا
فَـرَسَـتْـهُ فَـرْسَ الهِـزَبْرِ وما تَسْـ ... ـمَـعُ مِـنـهـا زَأراً ولكِنْ هَريرا

عندما يكون الإنسان واثقًا بنفسه وبحسن بلائه في أمر ما؛ يلتزم الصمت ويدع أفعاله تسبق أقواله، أو يتفوه بكلمات مقتضبات يُغني قليلها عن الكثير؛ لأنَّ الفعل أصدق إنباءً من القول، بيد أنَّ من لم يقتدر على القيام ببطولات تُعرب عن رباطة جأشه وصرامة حسامه عندما يصول في ميادين الحروب؛ سوف يجلس في أحضان أحلام اليقظة ويعمد إلى الإطناب وتفصيل القول في ثبات جَنانه وشدة مضاء سيفه، مثلما بسط المعري القول في ضربة صارمه النجلاء التي يُحاكي اتساعها اتساع فم البعير حين يأكل نبتاً مُرا يُقلص مشافره، وكيف لا تكون كذلك وهو يحمل سيفا صقيلا قاطعًا لو ضرب به جبلًا لقده إلى نصفين!، وقد شَفِعَ شاعرنا هذه الضربة بطعنة واسعة ماضية يرهب منظرها مَنْ خَبَرَ الحَرب وعَجم عودَها؛ نظرا إلى ما خلَّفته من دماء جارية أكسبتها نباهة الذكر واستطارة الصيت وَحَبَتها سِمَة الخلود، فضلًا عن أنَّ هول صوتها يُخرس الأفوه اللَّسِن وشدة وطأتها وسعتها تحاكي اتساع البئر التي تروي القتيل الصادي من دمائه؛ ونتيجة لذلك يرى المطعون وَجْهَ الفَزَعِ متذكرًا صوت الطعنة المدوّي، فيُحيي وأهله ليلَهُ سهرًا؛ إثرَ ألم طعنة فرسته كما يفترس الليث ظبي الكناس، وعلى الرغم من أنَّ صوتها لا يشابه صوت الزئير، فقد بَذَّت ضربات الأسد رعبًا وألمًا واتساعًا.

مما يحسن التنبيه إليه أنَّ إعجاب أبي العلاء بالمتنبي وتقيّله مذهبه الإبداعي والفكري حدا به إلى تفصيل القول في شدة بأسه وحسن بلائه وقد فاق خيال المعري وتشبيهاته واستعاراته خيال المتنبي وإبداعه في أبياته السالفة الذكر من حيث المعنى أما من حيث اللفظ فلا يلحق المعري غبار المتنبي،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

ولا أدل على ذلك من قول المعري في جودة سبك شعر المتنبي: " لا تظن أنَّك تقدِر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خيرٌ منها، فجرّب إنْ كنتَ مُرتابًا، وها أنا أُجرب ذلك منذُ العَهْدِ فلم أعثُر بكلمة لو أبدلتُها بأُخرى كان أليقَ وليُجَرّبْ مَنْ لم يُصَدِّقْ يَجِدِ الأمرَ على ما أقولُ"(الواحدي، ١٩٩٩،٢/ ٨١٤ _ ٨١٥)، وليس من شك في أنَّ المعري أكثر علمًا وإلمامًا ومعرفة منا باللغة العربية ولغة الشعر وأساليب الشعراء، ومن الجدير بالذكر أنَّ تفضيلنا للمعري وخياله وحُلم يقظته ليس تفضيلًا مطلقا وإنّما هو تفضيل مقتصر على الموازنة بين ما ذكرنا من أبيات المتنبي وأبي العلاء الآنفتي الذكر وحسب؛ لأنَّ المتنبي له القِدح المُعَلَّى على المعري وسائر الشعراء إنْ وازنا بين ديوانه ودواوينهم.

لعل من المفيد هنا أنْ نذكر قول أبي الطيب المتنبي (من الخفيف) (العكبري، ٢٠٠٨، ٢/ ١٧٢ _ ١٧٦)

كَفِرِندي فِرِندُ سَيفي الجُرازِ ... لَذَّةُ العَيْنِ عُدَّةٌ لِلبَرازِ
تَحسَبُ الماءَ خَطَّ في لَهَبِ النا ... رِ أَدَقَّ الخُطُوطِ في الأَحْرَازِ
كُلَّما رُمتَ لَونَهُ مَنَعَ النَّا ... ظِرَ مَوجٌ كَأَنَّهُ مِنْكَ هازي
وَهْوَ لا تَلحَقُ الدِماءُ غِرارَيـ ... ـهِ وَلا عِرضَ مُنتَضيهِ المَخازي
يا مُزيلَ الظَّلامِ عَنّي وَرَوْضِي ... يَومَ شُربي وَمَعقِلي في البَرازِ
وَاليَماني الَّذي لَوِ اسْطَعْتُ كانَت ... مُقلَتي غِمدَهُ مِنَ الإعزازِ
إنَّ بَرقي إذا بَرَقتَ فَعالي ... وَصَليلي إذا صَلَلتَ ارتِجازي
لَمْ أُحَمِّلكَ مُعلَماً هَكَذا إلـ ... ـلا لِضَربِ الرِّقابِ وَالأَجوازِ
وَلِقَطعي بِكَ الحَديدَ عَلَيها ... فَكِلانا لِجِنسِهِ اليَومَ غازي
سَلَّهُ الرَّكْضُ بَعدَ وَهنٍ بِنَجدٍ ... فَتَصَدَّى لِلغَيثِ أَهلُ الحِجازِ

فرضت القوة نفسها منذ بدء الخليقة؛ فحكمَ القويُ الضعيفَ واستأثر بالسيادة والقيادة لنفسه، وكأنَّ القوة نقطة انطلاق نحو الهيمنة وتعزيز تقدير الذات، وليس من شكٍّ في أنَّ مَنْ كان نسيج وَحْده وفَريد زمانه في مجال ما سيرغب في التفرد وانقطاع النظير في المجالات كلها أو معظمها؛ وهذا الأمر حثَّ المتنبي على الكشف عن قوته النفسية والجسمية، ولا يرى الفارس المغوار شيئًا أكثر قوة وجلادة من حسامه القاطع الذي يبيح لحامله التّيه والإدلال على أترابه؛ إذ جُمِعَت فيه مَزيَّتا القوة وحسن المنظر فهو ذو بريق أخَّاذ يسر الناظرين ويجعلهم يتدبرونه وينعمون النظر فيه؛ مما يعلي

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

محل حامله، فضلًا عن أنَّ دقة صقله التي لا يُلفى نظيرها وسرعة تضريب حامله أعناق العِدا جعلت الدم لا يتلطخ به، وعصمت نجم حامله من الأُفول؛ لأنَّه شمس ظلامه وواحة صحرائه وحرزه وملاذه في كل مفازة مترامية الأطراف، زد على ذلك أنَّ تَرَفّع سيف شاعرنا اليماني عن الأشْكال أسكن حُبَّهُ قلبَ شاعرنا وجعله يتمنى أنْ يكون ثالث عينيه فيلتحف بأجفانه بدلًا من غمده، ومِنْ ثَمَّ بيَّنَ لنا المتنبي أنَّه أكثر قوة وأشد فتكًا مِنْ سيفه؛ فهو يبرق بحميد فعاله ويرتجز بشعره الجزل قبل صليل السيوف وقعص الرماح، فيقوم رجزه وحسن فعله مقام اللمعان والصليل، كما أنَّ عود المتنبي _ فيما يرى في أحلام يقظته _ أشد صلابة من سيفه؛ إذ إنَّ كفَّه تشق به الدروع وتقطع رقاب الأعداء مما يمنح الحسام النَّباهة وذيوع الذِّكر، فضلاً عن أنَّ بريق السيف الذي يُحاكي برق السماء متأتٍ مِنْ سمو رُتبة حامله وفخامة شأنه.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ السيف معادل موضوعي لأبي الطيب، وما تَمَيّز السيف وتفرده إلا صورة مماثلة لتميز المتنبي وانقطاع نظيره فهو يمدح نفسه لا السيف؛ لأنهما من وادٍ واحد، وهذا الإطناب في وصف سيفه البتار وفروسيته أعرب لنا عما تقر به عين المتنبي من أحلام يقظة كان يأسو بها كلوم أيامه. وعلى ذلك النحو أتحفنا المعري بأحلامه قائلًا: (من الخفيف) (المعري، ١٩٨٦، ٤/ ١٨٠٨ _ ١٨١٠)

بـرقِـيـقٍ مِـثْـلِ الشّقيقِ مِن البَرْ ... قِ تَـعَـادَتْ فيه الصَّياقِلُ غِيرا
إنَّ كَفِّي لا تَحْلُبُ الخِلْفَ لكِنْ ... تَحْلُبُ السَّاقَ مُشْرِقاً مُسْتَطيرا
مُـؤذِنـاً هـالِـكِـيُّـهُ بالـمَـنـايا ... هـالِـكِـيْـهِ مُـبَـشِّـراً ونَـذِيـرا
كـائِـنـاً للمَنونِ هَارُونَ في البَعْـ... ـثِ لِـمُـوسى عَـوْناً لهُ وَوَزيرا
ثُمَّ قَصْري مَوْتٌ وقد فاتَ كُلاًّ ... مِـنْـهُ فَوْتٌ إنْ سَيِّداً أو حَقِيرا

إنَّ عالم أحلام اليقظة هو مدينة فاضلة ليس فيها فاضل ومفضول؛ فالقمة تتسع للجميع والناس كأسنان المشط يستطيع كلٌّ منهم أنْ يتخذ النجوم عرشا له ويكتب اسمه على جبين السماء، وقد دخل المعري هذه المدينة من أوسع أبوابها فاستضاء بسراج أحلامه عندما عزَّ عليه _وهو كفيف_ رؤية بصيص نور يلوح في الأفق، واستل غربه سيفٍ رقيق الشفرتين يُحاكي البرق لمعانا وبهاءً؛ وتبعا لذلك أُوقِدت نار الغيرة بين الصياقل الذين يتمنى كل منهم التفرد بشحذه وصقله، فضلًا عن أنَّ كف شاعرنا لا تُلبن الأضياف لأنَّها مولعة بالعقر والنحر ورؤية الدم المنتثر، وكيف لا وهو يحمل حساما جمع الرعب والجمال معا؛ إذ إنَّه يُخَبِّر الحدادين ويذكرهم بالموت وانقضاء الأجل ويُنذر من سوف

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

يُهْلِكهم حينما يوردهم حياض المنية، وكأنَّ هذا السيف اليد اليمنى للمنايا؛ فهو آلة موت تشد أزر ملك الموت، وتقصف أعمار أعداء شاعرنا الذي يرى أنَّ الموت قريب من الناس كلهم ولن ينجو منه أحد البتة؛ ولذا يقرِّب سيفُهُ آجالَهم فيقطع حبال حياتهم ويستوفي أنفاسهم.

ولعل من البديهي أنْ نقول: إنَّ الشاعرين قد تماثلا من حيث غريب الألفاظ والبحر والموضوع، وقد فاق المتنبي المعري خيالا وتصويرا وتشبيها واستعارة بشأو بعيد، فرحم الله الشاعرين العظيمين ما غَرَّدَ قُمْرِيٌّ على فَنَن.

الموازنة بين الشريف الرضي وأبي العلاء المعري

ليس من العسير بمكان إجراء موازنة موضوعية بين شاعرين متعاصرين اشتركا في الإعجاب بالشاعر نفسه وانتهاج منهاجه بين الحين والآخر؛ إذ يتمخض هذا الأمر عن وشائج قوية وواضحة بين قصائدهما، ولا جَرَمَ أنَّ لأحلام اليقظة في هذا المَقَام القَدَم الفارِعَة؛ فهي العصا التي يتوكأ عليها مَنْ اعتاد أنْ يأسو كلومه بيده والملاذ الذي يلتجئ إليه مَنْ عزم على استجماع قواه بعد أنْ فَتَّ الدهرُ الخؤونُ في عَضُدِه، وقد تحمل أحلام اليقظة في طياتها مناجاة للذات _مونولوج_ وحوارًا داخليًا يخاطب به الشاعر ذاته مبينا لها أنَّه سيف قاطع لم تحمله يد فارس مغوار؛ فتُرك في غمده ولم يُمنح فرصة لتجربته والبرهنة على سموق رُتبته وانقطاع نظيره، وقد شَق الشاعران العظيمان أمواج بحر الأحلام بسفن خيالهم، ودونك قول الشريف الرضي: (من الطويل) (حلاوي، ١٩٩٩, ١/ ٣٨٦)

ألا لَيتَ شِعري! هَلْ تُبَلِّغُنِي المُنى ... وَتَلْقَى بيَ الأعداءَ أَحصِنةٌ جُرْدُ؟
جِيادٌ، وَقَدْ سَدَّ الغُبارُ فُرُوجَها، ... تَروحُ إلى طَعنِ القَبائلِ أَوْ تَغدُوْ
خِفافٌ على إثرِ الطَّرِيْدَةِ في الفَلا، ... إذا ماجَتِ الرَّمْضَاءُ واختلطَ الطَّرْدُ
كأنَّ نُجُومَ اللَّيلِ، تَحْتَ سُرُوجِها ... تَهاوى على الظَّلماءِ واللَّيلُ مُسوَدُّ
يُعِيدُ عليها الطَّعنَ كُلُّ ابنِ هِمَّةٍ ... كأنَّ دمَ الأعْداءِ في فَمِهِ شَهْدُ
يُضَارِبُ حتَّى ما لِصارِمِهِ قِوى، ... وَيَطْعَنُ حتَّى ما لِذَابِلِهِ جَهْدُ
تَغَرَّبَ لا مُسْتَحقِباً غَيرَ قُوْتِهِ ... ولا قائلاً إلّاَ لِما يَهَبُ المَجْدُ
وَلا خَائِفاً إلَّا جَرِيرَةَ رُمْحِهِ ... وَلا طَالِباً إلّاَ الَّذِي تَطلُبُ الأُسْدُ

قد يجلب الغموض للمرء أتباعا ويشدهم نحوه رغبة في معرفة ما يضمره من محاسن؛ فقد يكون فيه من الشمائل ما يصبون إليه وما يحبونه في الرفيق أو القائد، وفي الوقت نفسه قد يعود كشف أوراق المرء ووضوحه بتبعات ناجعة؛ إذ يجعل الناس يرونه على حقيقته وسجيته، وهذا الأمر سينال

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

إعجاب واهتمام من يحب هذه السجايا، ويُنَفِّر ويُبعِد مَنْ لا يحبها أو يخشى مَنْ يتحلى بها لعدم توافقها مع مصالحه ورغائبه، فضلا عن أنَّ اتسام المرء بالوضوح والابتعاد عن المواربة والمداهنة قد يجلب له أصدقاء وأتباعا يشاطرونه هذه الصفة؛ إذ إنَّ الوضوح والنقاء الداخلي سوف يجلو بصيرة الإنسان ويزيد من فراسته فيريه العالم الخارجي كما هو ويسقط أقنعة الآخرين _ في الأغلب_؛ لأنَّ كل طائفة من الناس تميل إلى مَنْ يشابهها في الأفكار والمبادئ، ونتيجة لذلك كشف الشريف الرضي عن أماني نفسه مبينا لنا توقه إلى إذكاء فَتِيل حرب حامية الوطيس ممتطيا هو وأتباعه جيادا قد قلت كثافة شعرها لكثرة خوضها في غمار الحروب وتسربلها بغبارها وهي تشن الغارات على القبائل بثبات وإقدام بكرة وعشيا، وهي مطهمة لا تخشى ما تراه في الأسفل من برق صليل السيوف وإنَّما تستضيء به مهتدية إلى عَدُوِّ فارسها الذي يُسَرُّ برؤية طعنته النجلاء ويستعذب دم عدوه استعذابَ العسل الماذيّ، فضلًا عن أنَّ أصوات ضرب السيوف وقعص الرماح أجمل الأصوات عنده؛ فساحة المعركة هي مكانه الأليف الذي يهبه الغبطة والدَّعة ويشرح صدره، فالغربة فيها وطن؛ لأنَّها تُنيله متعة الفتك والبطش والانتشاء بشعوره بالسيادة والسطوة بعد النصر، مثلما يُبهج الافتراسُ الأسدَ ويُشعره بالقوة والمَنَعة.

وقد سَرَّنا حُلْم الرضي الماتع وجعلنا نتمنى أنْ يكون واقع الرضي على ما هو عليه في حُلْم يقظته، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ الحُلْم هو السلم الذي نرتقي به نحو الواقع، وقد ارتقى الرضي هذا السُّلَّم مِراراً دونَ أنْ يجد مَنْ يفتح له باب الواقع المُوْصَد.

عندما تضيق الحِيَل بشاعر عظيم ويتبدى له أنَّ ما يروم الإعراب عنه من أحلام، بعيدة كل البعد عن واقعه؛ سوف يحدو به هذا الأمر إلى العمل على تسويغها وتقليص البَوْن البعيد بين أحلامه والواقع، كمثَل أبي العلاء الذي قال ما يدور في خَلده ويعده منتهى طلبه على لسان رجل ترك لبس الدرع وغاب عن سوح الوغى حين كبر وأسن: (من الوافر) (المعري، ١٩٨٦، ٤/ ١٧٠٨_ ١٧٠٩)

وَأَخْلَقْتُ الشَّبابَ وكانَ بُرْدي ... وفارَقْتُ الحُسَامَ وكانَ حِتْنِيْ
كَـأنِّـي لَـمْ أَرُدَّ الخَيْلَ تَرْدي ... إذا اسْـتَسْقَيْتُها عَلَقاً سَقَتْنِيْ
أُلاقِـي الدَّارِعِينَ بِغَيرِ دِرْعٍ ... وَأَدْعُـو بالمُـدَجَّـجِ لا تَفُتْنِيْ
كَـأَنَّ جِيـادَهُمْ أَسْرابُ وَحْشٍ ... أُصَـرِّعُـهُـنَّ مِـنْ رُبْـدٍ وأُتْنِ
وَما أُعْجِلْتُ عن زَرَدٍ حِذَاراً ... وَلَـكِـنَّ المُـفَـاضَـةَ أَثْـقَـلَـتْنِيْ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

أكَلَّتْ مَنْكِبِي سُمْرُ العَوَالِي ... وَحَمْلُ السَّابِرِيِّ أكَلَّ مَتْنِيْ

تَزَيَّا المعري في هذه الأبيات بزي يحجبه عن أعين الناظرين ويهبه حرية مَحضة تامة تتيح له التعبير عن أحلامه بما تشتهيه نفسه وتقر به عينه؛ وتبعا لذلك شرع في استرجاع مناقبه وأمجاد أيام الشباب والفتوة حينما كان مقداما إذا الخيل أقبلت يُجَدِّل الأبطال ويضرب أعناق غُلْب الرجال شاربًا دمهم كما يُشرب الماء النَّمير، ملاقيا الكماة دون لبس جُنَّة؛ لأنَّ سيفه ورمحه يقومان مقام الدرع السابغة، فلا مناص لكل بطل شاكي السلاح من ضرب شاعرنا وطعنه، وكأنَّ الفرسان الأشاوس فرائسه هم وخيلهم وهو غَضَنفر رئبال يصطادهم أنَّى شاء، بيد أنَّ هذا الفارس المِغوار قد ضعفت بنيته وشِدّة أَسْره، وشكا إليه جسمه حمل الدرع الخفيفة والرمح عندما بلغ من الكبر عتيا.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ المعري قد سلك طريقا لم يسلكه الأكِفَّاء من قبل وأجاد فيه أيّما إجادة؛ لإدراكه "أنَّ جوهر الفن هو عدم الحفاظ على التقاليد، ولكن تقدم تنويعات جديدة، وتغييرات أساسية، وابتكارات على القصائد القديمة، وبذلك يتوسع النوع الفني باتجاهات جديدة"(نيتل، ٢٠٠٣، ٢٥٠) تُعلي محل الشاعر المُفلق وتزيد من ائتلاق وإنارة نجمه في سماء الإبداع.

ولعلَّ مِنْ مُسْتَحْسَن القول: إنَّ إنعام النظر في أبيات الشريف الرضي وأبي العلاء تمخض عن إدراك التفاوت بين أبيات الرضي التي اتسمت ألفاظها بالسلاسة والوضوح وبين أبيات المعري التي نلاحظ في تضاعيفها ألفاظًا غريبة، كأنَّه أراد أنْ يشغل بها القارئ عنِ الاستخفاف بحُلْمه المحال، فضلا عن أنَّ حُلْم الرضي قد نَمَّ على تطلعه إلى تحقيق انتصارات تترى تجلب المآثر والمفاخر في قابل إيامه، في حين أفصح لنا حُلْم المعري عن إدلال بشجاعة وبسالة وأمجاد سالفة لم تحدث البتة، وقد اشترك الشاعران في عدم تحقق حلميهما على اختلاف الزمن، ويبدو لنا أنَّ تشبيهات الرضي واستعاراته قد بذَّت تشبيهات واستعارات المعري بمقدار قليل، إلَّا أنَّ المعري نسب الفتك والإقدام إلى نفسه في الوقت الذي فصَّلَ فيه الرضي القول في مدح خيله ورجاله.

ونستخلص مما سبق أنَّ الشاعرين قد حلقا في سماء الإبداع بالمستوى نفسه _ فيما نرى_؛ مما يجعلنا نترك للقارئ حرية الاختيار والتفضيل. وما أروعَ الشريف الرضي في قوله: (من الوافر) (حلاوي، ١٩٩٩, ١/ ٥٠٤_ ٥٠٥)

وَيَـــوْمٍ سُـلِّطَتْ فِيْـهِ الـعَــوالـي ... عَـلـى الأَرواحِ وَاخْـتُـرِمَ الذِّمارُ
نُـعَـانِـقُ فـيـهِ أَبـكـارَ المَـنـايا ... وَهُــنَّ لِـغَـيـرِ أَنـفُـسِـنـا ظُؤارُ
وَقَـدْ حَـجَـزَ العَـجَاْجُ فَـلا نَجاءٌ ... وَقَـدْ ضَــاقَ الـمَـجَالُ فَـلا قَرارُ

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

وَمِـلـنـا بِـالـجِـيـادِ عَـلـى وَجاهـا ... وَقَـدْ دَمِـيَ الشَّـكـائِمُ وَالـلِـعـذارُ
وَقَـدْ وَسَـمَـتْ حَـوافِـرُها كُؤوساً ... وَمِـن عَـلَـقِ الدِّمـاءِ لَـهـا عُقارُ
وَأَجرى الضَربُ في الأَحشاءِ غُدراً ... تَـبـرَّضُ مـاءَهـا الأَسَـلُ الحِرارُ
ضَـرَبـنَ لَـنـا النُسُـورُ رِواقَ ظِلٍّ ... تَـلُـوذُ بِـحَـقـوَةِ القُـبِّ المِهارُ
تُـحَـلُّ الـهـامُ فـيـهِ بِالمَـواضـي ... وَفـي الأَعـنـاقِ حَبلُ رَدىً مُغارُ
تَـخُـوضُ تَـرائِـكـاً مِـنـهـا لُـجَـيـناً ... وَتَـصـدُرُ وَهْيَ مِن عَلَقٍ نُضارُ

نحن لا نُبدع في مجال ما _ في الأغلب_ إنْ لم ينل نصيبًا من حبنا أو صبٍّ جام اهتمامنا عليه إلى الحد الذي يجعلنا نتماهى فيه، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ الرضي قد تماهى في حُلْم يقظته هذا؛ إذ مزج الكناية بالاستعارة بالتشبيه كما يُمزج الماء بالصهباء، حتى خُيِّل إلينا أنَّه سُرَّ بهذا الحُلْم فشغله عما سواه وأنساه كُلَّ ما حوله، فسرد لنا أحداث هذا اليوم مثلما يقص عليك رجلٌ ما حدث في أطيب وأسعد أيام حياته، ولا جَرَمَ أنَّ بواعث الابتهاج والاستبشار تختلف من شخص إلى آخَر وبواعث سرور الرضي هي ما حققه الرضي من مآثر ومناقب في ذلك اليوم الباسم، الذي شافهت فيه السيوف الرقابَ فاستُلَّت الأرواح مِنَ الأجساد حين عانق فيه الرضي ومَنْ معه المنايا وسلطوا سيوفها وسهامها على أعدائهم، مستعينين بغبار المعركة الذي حال دونَ فرار أعدائهم وخلخلَ عزمَهم، ولم يزرِ التَّعَبُ بشاعرنا وأتباعه على الرغم من الإعياء الذي أصاب خيلهم المضرجة بالدماء، بعد أنْ ضربت حوافرها وجه الأرض مخلفة حفرًا تشابه الكؤوس قد مُلِئت دما عبيطا كأنه الخمرة **الجريال**، وقد أسعد فارسنا هذا المنظر؛ فمزق بسيفه جسوم العِدا ونَقَعَ غَليلَ رمحِهِ بدمائهم، وكأنَّ الرضي أخذ بيدنا وأدخلنا في ساحة معركة حامية الوَطيس فشاهدنا اشتجار الرماح وسمعنا صليل المشرفيات، ونظرنا بإعجاب إلى عصائب النسور التي حجبت الشمس عن جيش الرضي الذين ضربوا الأعناق بسيوفهم واسلموا الرؤوس إلى حبال المنايا التي شُدّت بها وأُحكِمَ فتلها، وقد دخل أعداء الرضي ساحة الوغى وهم يرتدون خوذا كأنَّها الفضة المحضة ثم أزهقت أرواحهم وهي كالذهب بعد أن لبست ثوبا من الدماء.

ومما لا بد من قوله: إنَّنا بالخيال ننطلق نحو حياة جديدة وإنَّ مهمة الشاعر المُفلق هي أنْ يجعل من هذا الخيال سفرا؛ لأنَّ القصيدة العصماء أشبه بدعوة إلى السفر(يُنظر: بوخليط، ٢٠١١، ٤١) وقد دعانا الرضي إلى سفر حيث الإبداع والإمتاع وحسن النسج وجودة السبك، ويبدو لنا أنَّ هذه

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

الأبيات من أروع وأعذب أبيات الشعر العربي التي فصَّلت القول في المعارك، وأنَّ هذا الحُلْم هو واسطة عقد أحلام اليقظة.

ولعل من المفيد هنا أنْ نذكر قول أبي العلاء المعري (من السريع) (المعري، ١٩٨٦،٢/ ٨٣٧_ ٨٤٢)

رُبَّ رِمَاحٍ طَعَنَتْ في العِدى ... وهْـيَ الـرِّمَـاحُ القَصَـبِيَّاتُ
سَـرَتْ لَهَـا تَـرْمَـحُ أَبْنَاءَهَا ... فـي الجَـوِّ بُـلْـقٌ عَـرَبِـيَّـاتُ
أَوْ نِسْـوةُ الـزَّنْـجِ بِـأَيْـمَانِهَا ... للـرَّقْصِ قُـضْـبٌ ذَهَـبِـيَّـاتُ
إِنْ فَسَـدَتْ مِـنْ زَمَـنٍ نِـيَّـةٌ ... أَوْ ظَـهَـرَتْ مِـنْـهُ خَـبِـيَّـاتُ
فَـالأَعْـوَجِـيَّـاتُ لَـنَـا عُـدَّةٌ ... تَـقْـدُمُـهُـنَّ الأَرْحَـبِـيَّـاتُ

إنَّ قوة الإنسان ومَنَعته متأتية مِنْ ما يمتلكه من أسلحة فكرية وقولية أو فعلية ملموسة، ومِنَ المفروغ منه أنَّه سوف يُعلي محل أشد أسلحته فتكا؛ ليرهب به عدوه، وليس من شك في أنَّ قلم المعري هو رمحه ونَبْله ومجنَّه؛ وتبعًا لذلك حَلَمَ شاعرنا بأنَّه ملك مُطاع يطعن برسائله المرسلة إلى جيوشه التي شبهها بسحاب اختلط فيه السواد والبياض تجمعت فيه قطع السحاب العظيمة والصغيرة بشكل يحاكي ضرب الخيول العربية مِهارها بأرجلها وحثها على التقدم ومواصلة المسير، فضلًا عن أنَّ صليل سيوف هذا الجيش العرمرم يحاكي برق هذه السحائب أو بريق القضبان المُذَهَّبة في أكفّ نساء الزنوج، وأغلب الظن أنَّ المعري جعل التشبيه مقلوبا _ عندما شَبَّهَ السحاب والزَّنج بالجيش_ رغبة في إظهار اقتداره على قلب الموازين؛ إذ إنَّهُ طعن العِدا بالرماح القصبية مثلما طعنهم جيشه بالرماح الخطية، زد على ذلك أنَّ روح شاعرنا _الحالم_ هي روح المحارب الذي يُشفِع طعن قلمه بطعن رمحه؛ فلسانه يقوم مقام سنانه، وكأنَّه لا يحب البدء بالقتال، فيبتدئ بطعن القلم، وإذا لم يكن من الحرب بدّ؛ سيكسر يد الزمن المُخادع والموارب، ويمتطي هو وجيشه الإبل ويقودون الخيل قاصدين أعداءهم رغبة في إرغام أنوفهم وثَلِّ عروشهم.

تجدر الإشارة إلى أنَّ المعري أراد أنْ يغير ما بنفسه من خلال الانزياح عن التفكير السائد والمصاحبات المعجمية المطّردة؛ لأنَّ " مجازات الإبداع ترى أنَّ كل تغيير في حساسية اللغة يستتبعه تغيير جذري في حساسية الإدراك والثقافة والواقع والعقل والوجود" (تعيلب، ٢٠١٦، ٤٩)، وقد غيّر أبو العلاء حدود خارطة أحلام اليقظة في حلمه الفريد هذا، بيد أنَّه لم يقتدر على تغيير واقعه؛ فاكتفى بالبرهنة على عظمة خياله الزَّاخِر الفَيَّاض، وشاعريته الفذة.

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

مما يحسن التنبيه إليه أنَّ إجراء موازنة موضوعية تفضي بنا إلى الفصل بين أبيات الرضي والمعري وتبيان الفاضل والمفضول سيمثل ثمرة تحليلنا الآنف الذكر لأبياتهما، ولا مِراء في أنَّ أبيات الرضي كانت أكثر وضوحًا من أبيات المعري التي اتسمت بالغموض، في حين كان للرضي النصيب الأكبر من غريب الألفاظ، أما من حيث حُسن الاستعارات وبلاغة التشبيهات ولطافة وبَداعة الكنايات فقد شَاء فيها الرضيُّ أبا العلاء شَأْوًا وحاز فيها الشريف الرضي قَصَب السَّبْق، فرحم الله الشاعرين العظيمين الحالمين وحقق أحلام يقظتهما في دار الآخرة.

الخاتمة

بعد أنْ بسطنا القول في أحلام اليقظة عند المتنبي والشريف الرضي وأبي العلاء المعري، إليكم أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

١- أعرب البحث عن الأهمية النفسية والمعنوية لأحلام اليقظة، وأظهر لنا كيف يرتمي الشعراء في أحضانها كلما عصفت بهم الخطوب.

٢- على الرغم من اختلاف شعرائنا الثلاثة في التعبير عما يدور في خلدهم من أحلام، فإنَّ المتنبي كان إمام الرضي والمعري اللَّذَيْنِ اتبعاه وانتهجا منهاجه في جلّ قصائدهما.

٣- إنَّ الشريف الرضي هو التلميذ الذي تفوق على أستاذه المتنبي وسائر الشعراء في مضمار أحلام اليقظة.

٤- لم يسبق أبو العلاء قرينَيه إلا في أبيات قليلة؛ مما يجعله أدنى رُتبة منهما، في حين يتوسّط المتنبي بينهما؛ لأنَّه دون الرضي رُتبةً _ فيما يخص أحلام اليقظة_ وفوق المعري.

٥- إنَّ الأحكام والموازنات التي وردت في هذا البحث تدور كلها في فلك أحلام اليقظة ولم تتعدَ حدودها البتة.

٦- سلك المعري باقتدار وبراعة دروبا لم يسبقه إليها أستاذه، في حين كان الشريف الرضي أكثر تمسكا بمنهاج المتنبي ولم يَحِدْ عنه إلا قليلًا.

المصادر:

١-باشلار, غاستون, الماء والأحلام دراسة عن الخيال والمادة, ترجمة: علي نجيب إبراهيم, المنظمة العربية للترجمة, بيروت_ لبنان, ط١, ٢٠٠٧م.

٢-البديعي, يوسف, الصبح المنبي عن حيثية المتنبي, المطبعة العامرة الشرفية, القاهرة_ مصر, ط١, ١٨٩١م.

٣-البديعي, يوسف, أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري, تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني, مطبعة الترقي بدمشق, دمشق_ سوريا, (د.ط), ١٩٤٤م.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

٤-بوخليط, سعيد, غاستون باشلار نحو نظرية في الأدب, دار الفارابي, بيروت_ لبنان, ط١, ٢٠١١م.
٥-تعيلب, أيمن, التخيل الأدبي وسرديات المحظورات العامة (قراءة نقدية في المحظور العام), جامعة قناة السويس, الجمعية المصرية للدراسات السردية, مج ٢٠١٦, ع ٢١, ٣٠/ ٩/ ٢٠١٦م.
٦-حَلَاْوي, محمود مصطفى, ديوان الشريف الرضي, شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت_ لبنان, ط١, ١٩٩٩م.
٧-الحموي, ياقوت, معجم البلدان, دار صادر, بيروت_ لبنان, ط٢, ١٩٩٥م.
٨-الديهاجي, محمد, الخيال وشعريات المتخيل بين الوعي والآخر والشعرية العربية, مطبعة وراقة بلال, فاس_ المغرب, ط١, ٢٠١٤م.
٩-الذهبي, ابن قايماز, محمد بن أحمد, تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام, تحقيق: د. عمر عبد السلام التدمري, دار الكتاب العربي, بيروت_ لبنان, ط٢, ١٩٩٣م.
١٠-رضوان, سامر, أحلام اليقظة مصدر مهم للطاقة النفسية يُعاد اكتشافها من جديد, الأرشيف العربي العلمي, ٢٠١٨م, https://osf.io/preprints/arabixiv/e٤rh٩.
١١-روسو, جان جاك, أحلام يقظة جَوَّال مُنفرد, ترجمة: ثريا توفيق, المركز القومي للترجمة, القاهرة_ مصر, ط٢, ٢٠٠٩م.
١٢-الشايب, أحمد, أصول النقد الأدبي, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة_ مصر, ط١٠, ١٩٩٤م.
١٣-ضيف, شوقي, الفن ومذاهبه في الشعر العربي, دار المعارف, القاهرة_ مصر, ط١٢, (د.ت).
١٤-ضيف, شوقي, في النقد الأدبي, دار المعارف, القاهرة_ مصر, ط٩, ١٩٦٢م.
١٥-العشماوي, محمد زكي, قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت_ لبنان, ١٩٧٩م.
١٦-عفيف, عبد الرحمن, الأدب الجاهلي في آثار الدارسين, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت_ لبنان, ط١, ١٩٨٧م.
١٧-العكبري, أبو البقاء, التبيان في شرح الديوان, تحقيق: د. كمال طالب, دار الكتب العلمية, بيروت_ لبنان, ط٢, ٢٠٠٨م.
١٨-مبارك, محمد زكي, الموازنة بين الشعراء, كلمات عربية للترجمة والنشر, القاهرة_ مصر, ٢٠١١م.
١٩-مبارك, محمد زكي, عبقرية الشريف الرضي, دار الجيل, بيروت_ لبنان, ط٢, ١٩٨٨م.
٢٠-المجذوب, عبد الله, المرشد إلى فهم أشعار العرب, دار الآثار الإسلامية, الصفاة_ الكويت, ط٢, ١٩٨٩م.
٢١-المعري, أبو العلاء, اللزوميات, تحقيق: سيدة حامد, منير المدني, زينب القوصي, وفاء الاعصر, د. حسين نصار, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٤م.
٢٢-المعري, أبو العلاء, شروح سقط الزند, تحقيق: مصطفى السقا, عبد الرحيم محمود, عبد السلام هارون, إبراهيم الإبياري, حامد عبد المجيد, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة_ مصر, ط٣, ١٩٨٦م.
٢٣-المعري, أبو العلاء, مُعجِز أحمد, تحقيق: د. عبد المجيد دياب, دار المعارف, القاهرة_ مصر, ط٢, ١٩٩٢م.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

٢٤-نيتل, دانييل, الخيال القوي (الجنون, الإبداع, والطبيعة البشرية), ترجمة: سامر عبد المحسن, مكتبة العبيكان, الرياض_ السعودية, ط١, ٢٠٠٣م.

٢٥-الواحدي, شرح الواحدي لديوان المتنبي, تحقيق: د. ياسين الأيوبي, د. قصي الحسين, دار الرائد العربي, بيروت_ لبنان, ط١, ١٩٩٩م.

٢٦-الوردي, علي, الأحلام بين العلم والعقيدة, دار كوفان, لندن_ المملكة المتحدة, ط٢, ١٩٩٤م.

Almasadiri:

1-Afif, Abd Al-Rahman, Pre-Islamic Literature in the Works of Scholars, 1st ed., Dar Al-Fikr for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, Lebanon, 1987.

2-Al-Akbari, Abu Al-Baqa, Al-Tibyan fi Sharh Al-Diwan, edited by Dr. Kamal Taleb, 2nd ed., Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah, Beirut, Lebanon, 2008.

3-Al-Ashmawy, Muhammad Zaki, Issues of Literary Criticism between the Ancient and the Modern, Dar Al-Nahda Al-Arabiya for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon, 1979.

4-Al-Badi'i, Youssef, Al-Subh Al-Munbi on the Status of Al-Mutanabbi, 1st ed., Al-Amirah Al-Sharafiya Press, Cairo, Egypt, 1891.

5-Al-Badi’i, Youssef, The Peak of Investigation into the Status of Abu al-Ala al-Ma’arri, edited by: Dr. Ibrahim al-Kilani, (n.d.), Al-Tarqi Press in Damascus, Damascus, Syria, 1944 AD.

6-al-Dhahabi, Ibn Qaymaz, Muhammad ibn Ahmad, History of Islam and the Deaths of Celebrities and Notables, edited by Dr. Omar Abdul Salam al-Tadmuri, 2nd ed., Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1993.

7-al-Dihaji, Muhammad, Imagination and the Poetics of the Imagination between Consciousness, the Other, and Arabic Poetics, 1st ed., Warraqa Bilal Press, Fez, Morocco, 2014.

8-al-Hamawi, Yaqut, Mu'jam al-Buldan, 2nd ed., Dar Sadir, Beirut, Lebanon, 1995.

9-Al-Ma'arri, Abu Al-Ala', Al-Luzumiyat, edited by Sayyida Hamid, Munir Al-Madani, Zainab Al-Qawsi, Wafaa Al-A'sar, Dr. Hussein Nassar, Egyptian General Book Authority, 1994.

10-Al-Ma'arri, Abu Al-Ala', Commentaries on Saqt Al-Zand, edited by Mustafa Al-Saqa, Abdul Rahim Mahmoud, Abdul Salam Haroun, Ibrahim Al-Abyari, Hamed Abdul Majeed, 3rd ed., Egyptian General Book Authority, Cairo, Egypt, 1986.

11-Al-Ma'arri, Abu al-Ala, Mu'jiz Ahmad, edited by Dr. Abdul Majeed Diab, 2nd ed., Dar al-Maaref, Cairo, Egypt, 1992.

12-Al-Majzoub, Abdullah, The Guide to Understanding Arab Poetry, 2nd ed., Dar Al-Athar Al-Islamiyyah, Al-Safa, Kuwait, 1989.

13-Al-Shaib, Ahmed, The Origins of Literary Criticism, 10th ed., Nahdet Misr Library, Cairo, Egypt, 1994.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الثامن والعشرون
٢٠٢٥م /١٤٤٦هـ

14-Al-Wahidi, Al-Wahidi's Commentary on al-Mutanabbi's Diwan, edited by Dr. Yassin al-Ayyubi, Dr. Qusay al-Hussein, 1st ed., Dar al-Raed al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1999.
15-Al-Wardi, Ali, Dreams Between Science and Faith, 2nd ed., Kofan House, London, United Kingdom, 1994.
16-Bachelard, Gaston, Water and Dreams: A Study of Imagination and Matter, translated by Ali Najib Ibrahim, 1st ed., Arab Organization for Translation, Beirut, Lebanon, 2007.
17-Boukhalit, Sa'id, Gaston Bachelard: Towards a Theory of Literature, 1st ed., Al-Farabi House, Beirut, Lebanon, 2011.
18-Daif, Shawqi, Art and Its Schools in Arabic Poetry, 12th ed., Dar Al-Maaref, Cairo, Egypt, (n.d.).
19-Daif, Shawqi, On Literary Criticism, 9th ed., Dar Al-Maaref, Cairo, Egypt, 1962.
20-Halawi, Mahmoud Mustafa, Diwan al-Sharif al-Radi, 1st ed., Dar al-Arqam ibn Abi al-Arqam Printing, Publishing, and Distribution Company, Beirut, Lebanon, 1999.
21-Mubarak, Muhammad Zaki, Al-Muwazana Bayn Al-Shu'ara, Kalimat Arabiya for Translation and Publishing, Cairo, Egypt, 2011.
22-Mubarak, Muhammad Zaki, The Genius of Al-Sharif Al-Radi, 2nd ed., Dar Al-Jeel, Beirut, Lebanon, 1988.
23-Nettle, Daniel, The Powerful Imagination (Madness, Creativity, and Human Nature), translated by Samer Abdul Mohsen, 1st ed., Obeikan Library, Riyadh, Saudi Arabia, 2003.
24-Radwan, Samer, Daydreams: An Important Source of Psychological Energy Being Rediscovered, Arab Scientific Archive, 2018, https://osf.io/preprints/arabixiv/9rh4e.
25-Rousseau, Jean-Jacques, Daydreams of a Solitary Wanderer, translated by Thuraya Tawfiq, 2nd ed., National Center for Translation, Cairo, Egypt, 2009.
26-Ta'alib, Ayman, Literary Imagination and the Narratives of Public Prohibitions (A Critical Reading of the Public Prohibition), Suez Canal University, Egyptian Society for Narrative Studies, Vol. 2016, No. 21, September 30, 2016.